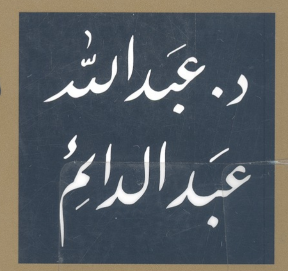


نكبة فلسطين
عام ١٩٤٨

أصولها وأسبابها وآثارها
السّياسيّة والفكريّة والأدبيّة
في الحياة العربيّة





دار الطليعة - بيروت

نكبة فلسطين عام ١٩٤٨

أصولها وأسبابها وآثارها
السياسية والفكرية والأدبية
في الحياة العربية

بيروت ـ لبنان
ص . ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
فاكس٣٠٩٤٧٠-١-٩٦١

الطبعة الأولى: تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٨
الطبعة الثانية : أيار (مايو) ٢٠٠٠

د. عبد الله عبد الدائم

نكبة فلسطين عام ١٩٤٨

أصولها وأسبابها وآثارها السياسية والفكرية والأدبية في الحياة العربية

التحدي العربي للمحنة بين الأمس واليوم

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

إلى رفيقة حياتي:

دعد المرادي

التي يرجع إليها الفضل في كل ما أنتجت،

أهدي هذا الكتاب،

وسائر ما كتبت..

تصدير

بين الأمس واليوم

١ ـ الكتاب الذي نقدّمه اليوم إلى القرّاء، كُتب عام ١٩٧٤، بتكليف من مركز الدراسات الفلسطينية، ليكون جزءاً من كتاب جامع شامل حول القضية الفلسطينية، يُشارك في إعداده عددٌ من الباحثين يتقاسمون أبوابه. وقد كان نصيبي أن أتولى إعداد دراسة عن «حرب عام ١٩٤٨ وذيولها (السياسية والأدبية والفكرية) في الوطن العربي».

غير أن الكتاب المنشود لم يرَ النور لأسباب عديدة، أهمّها اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية منذ أوائل عام ١٩٧٥. ولم أُعنَ بعد ذلك بنشر الدراسة التي أعددتها وإصدارها في كتاب مستقل، لانشغالي بأعمال فكرية كثيرة سواها، ولأنني لم أشعر في ذلك الحين بأن نشر مثل هذا الكتاب المنفردَ عن حرب عام ١٩٤٨ وذيولها، في تلك المرحلة الزمنية، عمل مقدَّم على سواه. ولاسيما أن ذكريات الناس عن تلك الحرب كانت لمّا تزلْ غضّة إلى حد ما، وأنهم كانوا لا يزالون يعيشون في غمرة ذيولها وآثارها المستمرة والمتكاثرة. بل لعلّي كنت أشعر أن أبناء الشعب العربي آنذاك لم يكونوا في حاجة إلى المزيد من إيقاظ مشاعرهم وتأجيج حماستهم لقضية فلسطين، فقد كانوا يعيشون تلك القضية بجوارحهم وأفعالهم ونضالهم.

٢ ـ أما اليوم، وبعد أن فعل الزمن فعلته، وبعد أن كادت وطأة الأحداث الماضية وحدّة الذكريات الأليمة تفقد الكثير من وزنها

وحدّتها، لا سيما بعد أن جهدت محاولات فرض السلام للعمل من أجل فتح صفحة جديدة تطوي صفحة الماضي، وبعد أن تقادم العهد بين الجيل الجديد وبين أيام النكبة عام ١٩٤٨، فإننا نشعر بأن نشر مثل هذا الكتاب عن النكبة وذيولها، واجب قومي وإسهام أساسي في تقويم ما أصاب بعض النفوس من عوج ونكران لدروس الماضي، وفي دحض المحاولات التي تودّ أن تئد هذا الماضي وأن تئد معه بالتالي الحاضر والمستقبل. هذا بالإضافة إلى ما لنشر مثل هذا الكتاب في هذه المرحلة من تجديد لذاكرة الأجيال الشابة، ومن تعزيز لمواقفها القومية الصادقة، ومن تسليح لنضالها ضد النسيان والخنوع والاستسلام بما في التاريخ القريب من دروس ومعانٍ وحقائق جديرة بالتأمل، قمينة بأن تستخرَج منها النتائج العلمية الموضوعية التي تندرج تحتها.

٣ ـ والحق إن الأحداث التي سبقت ورافقت وتلت حرب عام ١٩٤٨، كما هو واضح في الكتاب الذي بين أيديكم، تكاد تنطق بحقيقة واحدة تصرخ قائلة: ما أشبه اليوم بالبارحة! مع فارق أساسي وهو أن نكبة الأمس ولّدت مقاومة عربية عنيدة شاملة ضدها، أخذت صوراً وأشكالاً عديدة، بينما يُراد لنكبة اليوم أن تتوِّج التراجع والخنوع، وأن تقدّس الهزيمة.

إن التحليل العلمي الموضوعي لنكبة عام ١٩٤٨، على نحو ما نجده في هذا الكتاب وفي كثير سواه من المظان، يكشف على نحو بيّن عن ثوابت في السياسة الإسرائيلية وفي تعامل إسرائيل مع العرب، لم تتغيَّر بين عام ١٩٤٨ وما قبله وما بعده، وبين عام ١٩٩٠ وما بعده.

فلقد تمّ احتلال فلسطين وما سبقه من عمل تمهيدي طويل منذ ظهور كتاب هرتزل **الدولة اليهودية** عام ١٨٩٦ على أقل تقدير ـ على نحو ما يستبين جلياً من الكتاب الذي بين أيديكم ـ انطلاقاً من ثوابت لا

تزال ثوابت إسرائيل حتى اليوم (ولن تكون غير ذلك في الغد لأسباب موضوعية أساسية عديدة)، يمكن تلخيصها في الأمور الآتية:

٣ ـ ١ ـ ادعاء الحق التاريخي الإلهي في أرض فلسطين: وهذا أمرٌ غدا بديهياً ولا مجال للحديث عنه ههنا. وحسبنا أن نذكر، ما دمنا في معرض الحديث عن حرب عام ١٩٤٨، ما أعلنه الحاخام العسكري لإسرائيل موشيه غورن (بعد عام ١٩٦٧) حين قال: «إن الحروب الثلاث التي جرت بين إسرائيل والعرب خلال السنوات ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧، هي في منزلة «الحرب المقدسة». فأولها لتحرير أرض إسرائيل، والثانية لاستمرار دولة إسرائيل، أما الثالثة فقد كانت لتحقيق نبوءات أنبياء إسرائيل». ولا بد أن نضيف أن هذا الادعاء لا يزال راسخاً لدى مختلف الأحزاب الإسرائيلية، دينية كانت أو علمانية، ولدى الكثرة الكاثرة من أبناء إسرائيل ويهود العالم، وأنه بالتالي صلب السياسة الإسرائيلية وجوهرها. كذلك لا بد أن ننبّه إلى أن معظم أبناء الجيل الجديد في إسرائيل ـ خلافاً لما يظن بعضهم ـ أشدّ تطرفاً في هذا المجال من الجيل القديم نفسه، وأشدّ نزوعاً إلى العنصرية، بعد أن تمت تعبئتهم تعبئة موصولة مطردة بالعداء ضد العرب، وبعد أن أنمى القادة القدامى لديهم على مرّ الزمن «**القسوة الإسبرطية**» الوحشية، من خلال اختبارات قاسية لقوة الاحتمال يخضعون لها فيما يُدعى بتدريبات «الجدناع» (أو كتائب الشباب)، وبعد أن أباح لهم ربيوّهم الدينيون وقادتهم السياسيون قتل العرب أنى ثقفوهم. وما يُشاع عن حيرة بعض اليهود في إسرائيل بين الحرب والسلم، لا يشهد (إلاّ في حالات نادرة جداً) على تراجعهم عن ادعاءاتهم التاريخية، ولا عن نكوصهم عن أسلوبهم الوحشي في التعامل مع العرب، بل يصدر في حقيقة الأمر عن «**حب السلامة**» لا السلام، وتمنّي الخلاص من الحروب، ولكن عن طريق تعطيل الرفض

العربي للوجود الإسرائيلي مع الإبقاء على السيطرة الإسرائيلية على الوجود العربي وتعزيزها وتدعيم الحقوق التاريخية المزعومة لإسرائيل. وبتعبير آخر إن مصدر هذه الحيرة، ما يسميه الفيلسوف هيغل في قول مأثور «عجز النصر»، ووقوع إسرائيل في مأزق أمام «بحر العداء العربي» كما يسمّيه بعضهم، والرغبة الطبيعية بالتالي في تعطيل هذا العداء مع الإبقاء على الأهداف والمطامع والسيطرة الإسرائيلية كاملةً غير منقوصة. ذلك أن إسرائيل أدركت منذ البداية - وأثبتت لها الأحداث بعد ذلك - أن الرفض العربي للوجود الصهيوني في الأرض العربية هو حجر العثرة في سبيل تحقيق الصهيونية لأهدافها الرئيسية، وأن «الملجأ الآمن» لليهود هو بالتالي المطلب الأساسي، وأن سبيل تحقيقه هو «تعطيل القدرة العربية» بشتى الوسائل، حرباً أو سلماً. ومن هنا ندرك من خلال أحداث اليوم وعبر ادّعاءات السلام الإسرائيلية وأعمالها العدوانية من أجل السلام لماذا تعمل إسرائيل على أن تحيل السلام حرباً، بعد أن عجزت عن أن تحيل الحرب سلاماً. فالسلام عندها حربٌ مستمرة متصلة ضد العرب في شتى الميادين، وهدفه الرئيسي «أمن إسرائيل» و«بسط سلطان إسرائيل» وتحقيق المنطلقات الإيديولوجية للكيان الصهيوني **بأقل كلفة وأجزل فائدة.**

٣ - ٢ - وإلى جانب هذا الثابت الأول في السياسة الإسرائيلية، نعني تحقيق الادعاءات الدينية التاريخية، ينهض **ثابت ثانٍ** أساسي، هو **الاعتماد الراسخ على عون الدول الغربية**. لقد كان هذا الثابت واضحاً - كما نعلم وكما يوضّح الكتاب الذي بين أيديكم - منذ قيام الحركة الصهيونية ومنذ قيام دولة إسرائيل، وفي حرب عام ١٩٤٨ ولدى إنشاء الكيان الصهيوني، كما أنه واضح اليوم قبل مسيرة محادثات السلام وبعدها. ولا حاجة إلى أن نذكّر بما كان لبريطانيا من دور في إنشاء الوطن اليهودي وفي تعزيزه عن طريق الهجرة وسواها أيام الانتداب

البريطاني على فلسطين، وما قدمته من عون لإسرائيل أثناء الحرب العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٤٨، وما تمّ من تيسيرها لقيام دولة إسرائيلية عن طريق جلاء قواتها عن فلسطين في الوقت الملائم، . . . إلخ. كذلك لا حاجة إلى التذكير بدور الولايات المتحدة في قيام دولة إسرائيل. غير أن ما لا بد من ذكره أن تدخّل الولايات المتحدة الفعلي في القضية الفلسطينية قد بدأ منذ عام ١٩٤٣، وذلك عندما طرحت قضية الأوروبيين الذين شردتهم الحرب، وكان بينهم ربع مليون يهودي. فلقد اقترح ترومان، رئيس الولايات المتحدة آنذاك، إرسال اليهود إلى فلسطين. كذلك لا بد من أن نذكر دور الولايات المتحدة في نسف **الكتاب الأبيض** الذي رفضه المؤتمر الصهيوني عام ١٩٤٢ والذي نصّ بوجه خاص على تحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين. ولا بد أن نذكر أيضاً اعتراف الولايات المتحدة بدولة إسرائيل **بعد إحدى عشرة دقيقة من قيامها** (في ١٤ أيار/ مايو ١٩٤٨). ومما يستحق الذكر ـ في إطار الشبه بين الأمس واليوم ـ أن الرئيس الأمريكي اتخذ قراره هذا بعد أن اجتمع بمستشاريه، من منطلق الرغبة في تأييد اليهود الأمريكيين له وللحزب الديمقراطي في الانتخابات التي كانت وشيكة.

والحديث عن هذا الثابت، نعني اعتماد الصهيونية منذ نشأتها واعتماد إسرائيل قبل قيامها وبعده على عون الدول الأجنبية (وعلى رأسها بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية)، حديث ذو شجون. ويعنينا منه أن الحاضر والآتي في هذا المجال أشبه بالماضي من الماء بالماء، على حد تعبير ابن خلدون. وحسبنا ما نشهد اليوم من دعم غير محدود وغير مشروط لإسرائيل من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، من أجل الانتخابات الأمريكية وإنفاذاً للثوابت الأمريكية في هذا المجال. حسبنا أن نذكر كيف تحدّى الرئيس كلينتون الزمان والمكان، وخفّ إلى دعم بيريس ومواساة إسرائيل في «مؤتمر شرم

الشيخ»، دون أن يهتزّ له جفن أمام «مجزرة قانا» في لبنان! وقارىء هذا الكتاب لا بد أن يعقد مقارنة بين ما تقوم به الولايات المتحدة من تأييد للعنف الإسرائيلي، وبين صمتها وصمت بريطانيا عام ١٩٤٨ وما بعده أمام مجزرة دير ياسين وسائر الغارات الإرهابية التي قامت بها العصابات اليهودية في ناصر الدين (١٤/ ٤/ ١٩٤٨)، والكرمل (١٨/ ٤/ ١٩٤٨)، والقبو (١/ ٥/ ١٩٤٨)، وبيت فارس (٣/ ٥/ ١٩٤٨)، وسعسع (١٤/ ٢/ ١٩٤٨)، وبيت الخوري (٥/ ٥/ ١٩٤٨)، والزيتون (٦/ ٥/ ١٩٤٨)، ووادي عربة (٣١/ ٥/ ١٩٥٠)، واللد (تموز/ يوليو ١٩٤٨)، وغور الصافي (٢٥/ ٩/ ١٩٥١)، وقبية (١٤/ ١٠/ ١٩٥٣)، وقلقيلية (١٠/ ١٠/ ١٩٥٦)، وكفر قاسم (٢٩/ ١٠/ ١٩٥٦)، وسواها كثير (هذا إذا لم نذكر المذابح الحديثة وعلى رأسها مذبحة صبرا وشاتيلا ومذبحة المسجد الأقصى ومذبحة الحرم الإبراهيمي ومذبحة قانا).

٣ ـ ٣ ـ والحق أن الثابت الثالث بين ثوابت إسرائيل السياسية هو **«اتخاذ العنف» مطية للوصول إلى أهدافها**، وذلك قبل ولادة دولة إسرائيل وفي أثناء ولادتها ولاسيما في حرب عام ١٩٤٨، وبعد ولادتها حتى اليوم.

وكلنا يعلم أن أبرز وسائل الدور الصهيوني كان ولا يزال اعتماده على تنظيماته الإرهابية واتخاذه العنف وسيلة أولى وأساسية لتحقيق مطلبه الأول، نعني طرد العرب من ديارهم واستلام فلسطين خلوة من أبنائها. وكلنا يعلم كذلك ـ كما سنرى في الكتاب ـ أن اليهود استغلّوا قرب انسحاب الإنكليز من فلسطين من أجل «تنظيف» الأرض الفلسطينية وطرد سكانها قبل انسحاب الإنكليز (في ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨). وقد أدى هذا العنف في تلك المرحلة وما بعدها إلى قتل العرب وتشريدهم ونشر الذعر بينهم بحيث بلغ عدد اللاجئين عام

١٩٥٤ (حسب تقرير لوكالة الغوث الدولية) ٨٨٧,٠٥٨ لاجئاً موزعين بين الأردن وقطاع غزة ولبنان وسورية.

وههنا أيضاً يتجاوز الحديث عن العنف الصهيوني الإسرائيلي وجذوره التاريخية حدود هذا التصدير. وحسبنا أن نذكر عابرين أن الصهيونية وإسرائيل استلهمتا ولا تزالان روح العداء للشعوب الأخرى من التراث الديني اليهودي (في التوراة ثم في التلمود) على نحو ما زيّنه أحبار اليهود عبر الزمن. ومن أهمّ مصادر العنف في هذا التراث العهد القديم وما انطوى عليه من فلسفة الحرب، ومن الصلة بين «حرب إسرائيل» و«رب إسرائيل» الذي يغدو «رب الجنود» الذي يمهّد لبني إسرائيل السبيل لتحقيق مأربهم في الغزو والاحتلال وطرد الشعوب الأخرى. وتنسب المصادر الدينية اليهودية إلى موسى أنه وضع أسس التقاليد العسكرية لبني إسرائيل التي سار على هديها الأحفاد من بعده. كما تنسب إلى عبده وخادمه يشوع بن نون الذي تسلَّم القيادة من بعده وضع أسس التعامل مع البلدان المفتوحة، بعد أن تمكّن من دخول أريحا فيما تدّعي تلك المصادر، وبعد أن قتل مع جنوده «كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، وحتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف» (سفر يشوع ٦ : ٢٠ ـ ٢١). والنصوص التوراتية والتلمودية التي تغذّي الوجدان الإسرائيلي بمبررات العنف والقسوة والوحشية عديدة، وهي تدرَّس في المدارس الإسرائيلية دون أن تحظى بأي معالجة نقدية. وفي دير ياسين وغيرها من الأماكن كرَّر الإسرائيليون ما فعله يشوع بن نون عند دخوله أرض كنعان وفق ما ورد في التوراة.

والحروب التي شنتها إسرائيل على الدول العربية هي، في نظر الإسرائيليين، ملتزمة بقواعد الشريعة الدينية اليهودية (الهالاخا)، وهي حروب مقدّسة للدفاع عن الاستيطان اليهودي (اليشوف) في فلسطين

ضد الجيوش العربية التي غزت أرض فلسطين لكي تبيد (ويا للهول!) الشعب المُدافع عن حريته[1].

ويُضاف إلى هذه المقومات الدينية التقليدية للروح العدوانية لدى اليهود، ما سبق أن أشرنا إليه من نمو جيل جديد في إسرائيل، دُرّب على العنف والقسوة، وأصبحت الحرب جزءاً من حياته على حد تعبير آمنون روبنشتاين. بل إن ثمة من وصف المجتمع الإسرائيلي نتيجة لذلك بأنه «جنود في إجازة»، ومن وصف دولة إسرائيل بأنها «جيش له دولة» أو «سلاح طيران يملك دولة». وقد عبَّر الشاعر الإسرائيلي يعقوب باسار عن هذا المعنى في قصيدته «الحرب المقبلة» التي كتبها عام ١٩٦٨، فقال:

«الحرب المقبلة... ننشئها... نربيها
ما بين حجرات النوم... وحجرات الأولاد»[2]

ومثل هذا ما قاله شاعر إسرائيلي آخر هو حانوخ لفين، في تلك الأغنية التي شاعت خلال حرب الاستنزاف (١٩٦٩ ـ ١٩٧٠)، ومن كلماتها:

«حين نتنزه نكون ثلاثة،
أنا وأنت والحرب القادمة.
وحينما ننام نكون ثلاثة،
أنا وأنت والحرب القادمة»[3]

---

(١) من أجل شيء من التفصيل حول الروح العدوانية تجاه العرب في الشخصية الإسرائيلية، يحسن الرجوع إلى كتاب رشاد عبد الله الشامي: **الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية**، الكويت، سلسلة عالم المعرفة ـ رقم ١٠٢، ١٩٨٦ (ولاسيما الفصل الخامس، ص ١٦٤ ـ ٢٥٥).

(٢) انظر: د. إبراهيم البحراوي: **الأدب الصهيوني بين حربين**، ص ٤٣.

(٣) د. رشاد عبد الله الشامي: «التمرد على الموت بلا ثمن في الشعر العبري». بحث غير منشور ورد في كتاب د. إبراهيم البحراوي المشار إليه أعلاه.

وقد سبق أن قلنا إن مثل هذا الحديث عن الحرب لدى طائفة من أبناء الجيل الجديد لا ينبىء عن نزوع إلى السلام (إلاّ نادراً)، وإنما ينزع إلى تمنّي «السلامة». فالشخصية اليهودية الإسرائيلية، في مقوماتها الأساسية، تظل شخصية تختزن في داخلها مقومات العدوان والقسوة، وتؤمن أنهما السبيلان الوحيدان لضمان البقاء الإسرائيلي في قلب البحر العربي الرافض له. والحرب والعدوان والعنف تظل في نهاية الأمر الوسيلة الأساسية لتحقيق دوافع الحقد والعدوان العميقة، الحالّة في كيانه منذ أقدم عصور التاريخ، والتي زادتها الصهيونية ودولة إسرائيل تأججاً وضراوة.

وقد وفّرت الدول الكبرى، والولايات المتحدة بوجه خاص، لإسرائيل الوسائل العملية لتعزيز دوافع العنف والسيطرة عندها، حين أعلنت في أكثر من مناسبة، وبلغة صريحة لا تقيم أي وزن للعرب، أنها تضمن دوماً وأبداً لإسرائيل تفوقها العسكري على القوة العسكرية للعرب أجمع! وإن كنا نعجب لشيء فعجبنا اليوم من التناقض بين دعوة الولايات المتحدة العرب إلى إقامة السلام مع إسرائيل، وبين تزويد إسرائيل بكل ما يوفر لها سحق العرب متى شاءت، بما في ذلك الأسلحة النووية، فضلاً عن شبكة الصواريخ وشبكة الصواريخ المضادة، وبالإضافة إلى سلاح الطيران المتقدم! ومن حقنا، تجاه هذا كله، أن نتساءل: ماذا يعني السلام الذي تفرضه القوة؟ وهل يقوى على الصمود أمام ثورة الكرامة الجريح المهانة للشعب العربي عاجلاً أو آجلاً؟ وهل في وسع السلام الحقيقي أن يقوم إلا إذا سار مع العدالة جنباً إلى جنب؟ وهل ثمة أقوى وأخطر شأناً من الكرامة والعدالة إذا حملا السلاح؟

بل من حقنا أن نتساءل فوق هذا وقبل هذا، كيف ننتظر من إسرائيل أن تجنح إلى سلم حقيقي صادق بعد أن وفّرت لها القوة

الذاتية والمجلوبة أدوات التحكّم والسيطرة والغطرسة؟

وهل من باب مداواة الداء بالداء أن تقدّم الولايات المتحدة للنزعة العدوانية الأصيلة لدى الصهاينة وأبناء إسرائيل ما يوفّر لها التفتح والانطلاق والفعالية؟ وهل من وسائل توليد النظام العالمي الجديد الذي يدّعونه والذي يزعمون أنهم يريدونه نظاماً ديمقراطياً حرّاً وعادلاً، أن تستثنى إسرائيل من هذا النظام، وأن يُباح لها من العنف ومن الفاشية ومن وأد الديمقراطية ما لا يُباح لسواها؟ ولعلّ الجواب الضمني لبعض الدول الكبرى على هذا التساؤل هو أن قيم العدالة والحرية هي في حقيقة الأمر سلعة تُباع للضعفاء ويُباح تجاوزها للأقوياء! والحق أن أبناء الوطن العربي، ومعهم الكثرة الكاثرة من أبناء الدول الأخرى، ولاسيما النامية، بل معهم بعض يهود العالم الصادقين، يطرحون دوماً وأبداً سؤالاً واحداً: إلى متى تظل إسرائيل دولة ليست كأي دولة في العالم، يُباح لها ما لا يُباح لغيرها، وتستبيح لنفسها تحطيم أي قيمة إنسانية؟

٣ ـ ٤ ـ وإنْ ننسَ لا ننسَ الثابت الكبير في السياسة الإسرائيلية نعني تمزيق العرب ومحاولة قلبهم دويلات تصطرع، وطوائف تحترب، ومذاهب تعترك. وقد عمل الصهاينة من أجل هذا الهدف منذ بداية الحركة الصهيونية، وتجلّى ذلك واضحاً في تجزئة الوطن العربي بعد الحرب العالمية الأولى، تحقيقاً للمآرب المشتركة للاستعمار وللصهيونية. ثم تجلّى في حرب عام ١٩٤٨ نفسها وما وقع فيها من انقسام في الصف العربي المحارب نفسه. وتجلّى بوجه خاص في الجهود الجبّارة التي بذلتها إسرائيل من أجل تحطيم وحدة مصر وسورية.

وقد بلغ هذا الهدف، هدف تفتيت البلدان العربية، ذروته اليوم من خلال «استفراد» الدول العربية في مساعي السلام، ومن خلال

الإمعان في تمزيق الصف العربي باسم السلام. وحسب إسرائيل ومن وراءها أن يؤدي مركب السلام إلى ما نرى ونشهد من امحاء أدنى درجات التعاون والتضامن العربي. فمن البديهي أن تحطيم التضامن العربي، عن طريق مخطط السلام المزيف على نحو ما رسمته إسرائيل ومَنْ وراءها، مفتاحٌ سحري في يد إسرائيل من أجل فرض السلام الذي تريده، نعني سلام الحرب، سلام الإذعان والخضوع للسيطرة الإسرائيلية بأشكالها المختلفة، العسكرية والاقتصادية والثقافية.

غير أن هذا الثابت الأساسي بين ثوابت السياسة الإسرائيلية، نعني تمزيق الكيان العربي الموّحد، ليس سهل المنال، كما قد يُظن. فالوجود العربي الموحّد، مهما يبدُ عليه من أمائر التخاذل والضعف في مرحلة من المراحل، وجود مكين، عميق الجذور في نفوس أبناء الشعب العربي. والقضاء عليه لا يتم إلاّ بالقضاء على الذات العربية والثقافة العربية الإسلامية والهوية العربية. ومثل هذا المطلب مطلب متعذر مناف لطبائع الأمور. وقد دلّت شواهد التاريخ القديم والحديث على أن هذا الشعور العربي المشترك الحالّ في أبناء الأمة العربية كأقوى ما يكون الشعور بالهوية لدى أي أمة أخرى، استطاع أن يتجاوز المحن والمؤامرات والحروب والقوى الاستعمارية التي تكالبت عليه، وما أكثرها! بل إن هذه المحن زادته صلابة وتماسكاً والتفافاً حول ذاته. ولا بد له أن ينتفض ويسترد عافيته ووحدته عاجلاً أو آجلاً، بعد أن تتكشف له على نحو صارخ الأهداف الحقيقية لمحنة المحن التي يواجهها اليوم، ونعني بها محاولة إسرائيل ومَنْ وراءها إلغاء دوره في عملية السلام، بل إلغاء ذاته ووجوده باسم سلام زائف، يتمّ عن طريق القوة ومآله الاحتراب لا محالة.

٤ ـ ولعل خير ما يشهد على قوة الشعور العربي الموحد ومتانته، ما حدث بعد حرب عام ١٩٤٨ من تعبئة شاملة للطاقات العربية في

شتى الميادين، ومن مراجعة كاملة لأسس المجتمع العربي والسياسات العربية التي كانت سائدة قبل ذلك، على نحو ما يبيّن الكتاب الذي بين أيديكم. فنكبة فلسطين عام ١٩٤٨ كشفت عن مواطن الضعف في الوجود العربي الذي سبقها وعن وهن الأسس التي يقوم عليها. وقد أدّى ذلك إلى مراجعة فكرية نقدية واسعة، تجلّت في الأدب والنتاج الفكري، كما أدى إلى ردود فعل صارخة على الأوضاع والنظم السياسية التقليدية التي كانت سائدة، والتي كانت من أهمّ أسباب النكبة.

٤ ـ ١ ـ وهكذا ظهرت حركات حزبية وانقلابات عسكرية وتحوّلات جذرية في الحكم في البلدان العربية، مثلّت إلى حد بعيد رد فعل الكيان العربي على النكبة وأسبابها. وتمّ بالتالي انتزاع السلطة في كثير من البلدان العربية من القيادات السياسية التقليدية، وسادت في الساحة العربية أحزاب وحركات تقدمية (كحزب البعث العربي الاشتراكي في أكثر من بلد عربي وكحركة الضباط الأحرار وما أعقبها من ثورة ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢ في مصر، وكحركة القوميين العرب). كما اشتدت في البلدان العربية جميعها نزعات التحرر من الاستعمار وإسقاط الأحلاف الاستعمارية. وكان من نتائج ذلك إلغاء اتفاقية الجلاء بين مصر وبريطانيا في كانون الثاني/ يناير ١٩٥٧، وتحرر بلدان المغرب العربي واحداً تلو الآخر، واستقلال الجزائر بوجه خاص في ٥ تموز/ يوليو ١٩٦٢، وإجلاء القوات البريطانية عن اليمن الجنوبية في ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧، وإعلان استقلال الكويت في حزيران/ يونيو ١٩٦١، وتصفية القواعد الأجنبية في ليبيا بعد ثورة الفاتح من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٩، وتحرر البحرين بعد نضال طويل ضد الاستعمار البريطاني، وتحرر عُمان بعد نضال طويل أيضاً، وتحرّر سائر البلدان العربية بعد ذلك.

كذلك كان من نتائج نكبة عام ١٩٤٨ **نضالٌ عنيد ضد الأحلاف**

الاستعمارية، وعلى رأسها «حلف بغداد» (الذي قام في ١٢/١/ ١٩٥٥) و«مشروع إيزنهاور» (منذ عام ١٩٥٧). هذا بالإضافة إلى عقد «اتفاق الدفاع العربي المشترك»، وانتهاج سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، وبالإضافة إلى وقفة الشعب العربي في مصر (ومن ورائه سائر الشعوب العربية) في مواجهة العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦. وقد توجت هذا كله الوحدة المصرية ـ السورية التي مثّلت أوج الصعود في المدّ القومي العربي.

وفوق هذا وذاك كان من نتائج حرب ١٩٤٨ التركيز على أهمية بناء الجيوش الوطنية وتدريبها وإعدادها للمعركة. وقد تمّ ذلك بوجه خاص بفضل التحرّر من حصار الأسلحة الذي كانت تفرضه الدول الغربية على البلدان العربية.

٤ ـ ٢ ـ هذه الآثار السياسية التي خلفتها نكبة عام ١٩٤٨، سارت معها جنباً إلى جنب حركات فكرية وأدبية تولّت نقد بنية الوجود العربي والكشف عن مواطن الضعف فيه ورسم سبل تطويره وتحديثه. وقد عبّرت عن ذلك طائفة من الكتب والدراسات والدواوين الشعرية أشار إلى أهمها الكتاب الذي بين أيديكم. وقد كان منطلق هذه الأعمال الفكرية والأدبية جميعها الشعور بأن الهزيمة لم تكن سوى نتيجة لأمراض لها جذورها وأصولها في أعماق الحياة العربية، وأنها تعبير عن أزمة حضارية يُعاني منها الوجود العربي بأكمله، وأن تجاوزها لن يكون إلاّ عن طريق تحقيق تغيير بل انقلاب شامل في بنية ذلك الوجود ينطلق من نظرة جديدة وفلسفة جديدة ورؤية مستقبلية واعية.

ومن هنا لعب الفكر والأدب دور المحرّض والباعث على ولادة هذه النظرة الجديدة. وقد تخيّر الكتاب الذي بين أيديكم نماذج قليلة من ذلك الفكر والأدب، معبّرة عن جملة ذلك النتاج إلى حد كبير. وتريث لهذا الغرض، في ما يتصل بالأدب، عند القصة والمسرحية

وأهمّ الموضوعات التي تمّت معالجتها فيهما. وهي موضوعات تكاد تشمل المشكلات الرئيسية التي أدّت إلى نكبة عام ١٩٤٨ (دور بريطانيا ـ أعمال الصهاينة الوحشية ـ سلوك قواد الجيوش العربية ـ الأسلحة الناقصة أو الفاسدة. . . إلخ). هذا بالإضافة إلى وصف اللاجئين العرب وبؤسهم والتعبير عما يحملونه من مرارة وحقد، وبالإضافة إلى وصف الآمال العربية والتطلع إلى طريق الخلاص. وقد تريث هذا النتاج الأدبي كذلك عند موضوع أساسي هو موضوع «الحنين إلى الديار» و«الأمل في العودة» و«الدعوة إلى الكفاح»، وخصّ ذلك الموضوع بعناية بارزة.

أما النتاج الفكري الذي أفرزته النكبة فقد تحدّث الكتاب الذي بين أيديكم عن جانب منه، متريثاً عند الصُّوى التي تمثّل أهمّ معالمه وأبرزها: كتاب **عبرة فلسطين** لموسى العلمي (١٩٤٩)، وفيه يدعو إلى تجديد شتى جوانب الحياة العربية. وكتاب **معنى النكبة** لقسطنطين زريق (١٩٤٨) وفيه يدعو إلى الإصلاح التطوري في مختلف نواحي الحياة القومية، وإلى أهمية مبادرة القادة والصنعة الذين يدفعون الاصلاح دفعاً حين يمثّلون الفكر التقدمي بأوسع معانيه وأعمقها. وكتاب **النكبة والبناء** لوليد قمحاوي (١٩٥٦)، وهو كتاب ضخم يبرز فيه دور النخبة القائدة، ويبين عناصر البناء الرئيسية (المواطن العربي ـ التغيير الاجتماعي ـ التطوير الاقتصادي وجوهره التوزيع الشامل العادل للثروة ـ التطوير العلمي، وقوامه بناء نظام تعليمي لا طبقية فيه ولا تمييز، ونشر الثقافة العامة، وتنشيط العقل ـ والتطوير السياسي، وقوامه إقامة دولة عربية واحدة أو دويلات عربية متحدة). ثم كتاب **الفعالية الثورية في النكبة** لنديم البيطار (١٩٦٥)، وفيه يقوم بجهد تأليفي تركيبي من أجل تحليل النكبة ورسم سُبُل الخروج منها. ويتحدّث، في ما يتحدّث، عن عجز الفكر العربي أمام النكبة، ويرسم له السُبُل التي

يتوجب عليه السير فيها، ويرى في خاتمة المطاف أن من اللازم أن يقوم «تجديد عقائدي يؤدي إلى تجديد نفسي وروحي»، وأن ذلك التجديد يتمّ «عند قيام فلسفة حياة جديدة»، أي إيديولوجية جديدة تقدّم حلولاً أساسية جذرية للوجود العربي.

٥ ـ وقد يكون من العسير في هذه المرحلة أن نعقد مقارنة بين الآثار التي خلّفتها نكبة عام ١٩٤٨ في شتى جوانب الحياة العربية، وبين الآثار التي يخلّفها اليوم ـ ويمكن أن يخلّفها في الغد ـ تراجع المدّ القومي العربي، ولاسيما مسيرة السلام.

ومع ذلك في وسعنا أن نصف وصفاً ناقصاً دون شك أبرز معالم تلك الآثار:

٥ ـ ١ ـ وعلى رأس تلك الآثار بروز النزعة التي تسمّي نفسها «واقعية»، مبرّرة بذلك وهنها وتخاذلها. وتأخذ هذه النزعة مظاهر متعددة: منها إنكار الإيديولوجيات (والانسياق مع التيار السائد في بعض الدول المتقدمة بهذا الشأن، رغم التباين الصارخ بين أوضاع تلك الدول وأوضاع البلدان العربية). ويتبع ذلك إنكار التفكير المثالي واعتباره تفكيراً خيالياً سحرياً، والقول بأن «زمن الفاتحين» (في شتى مجالات الحياة العربية) قد انتهى، وأن مهمة البلدان العربية تقتصر على حماية نفسها من «الفتح المضاد»، وأن دورها الأساسي هو «تقليص الخسائر» والقبول بالأمر الواقع، وأن المشاعر الإنسانية ينبغي أن تكون لها الغلبة على المشاعر القومية بل عليها أن تنفيها... إلى آخر هذه المعزوفة.

وفي غمرة هذا الانحسار في المدّ العربي، ينسى هؤلاء أن «الواقعية» **تعني الاستناد إلى الواقع من أجل تغييره لا من أجل «تدويمه»** إن صحّ التعبير، وأن علينا، كما يقول سائر المفكّرين في العالم، أن ننطلق من العالم على نحو ما هو عليه، ولكن علينا ألا نقبله كما هو

عليه، أي أن علينا أن نرفض «الجبرية» في مجرى الأحداث. وكما يقول الرئيس الفرنسي الراحل ميتران، في جوابه على من سأله: هل سيكون للإشتراكية مكان في فرنسا في المستقبل: «إن هناك دوماً مستقبلاً لمن يفكر في المستقبل ويعزم على صنعه». ولنا في الصهيونية وأحلامها التي تحققت، رغم إنكار الكثيرين من قادة اليهود لها في البداية، مثال صارخ. أولم يقل رائد الصهيونية هرتزل في إحدى رواياته (وعنوانها: **الأرض القديمة: الأرض الجديدة**) عبارة غدت محرك الأجيال الصهيونية من بعده، وذلك حين قال في الرد على من يصف أفكاره بأنها أحلام: «لن تكون حلماً إذا أنتم عزمتم على تحقيقها»؟

٥ ـ ٢ ـ ومن بين آثار هذا الانحسار والنفق القومي المظلم، **إنكار الوحدة العربية**، بل إنكار وجود أمة عربية واحدة. والردّ على هذه الردة أمر يستغرق الصفحات الطوال[1]، وحسبنا أن نقول إن الحجة التي يقدمها أصحاب هذا المنزع هو ما يرون من تشتت الصف العربي وتصارعه أحياناً. والرد على هذه الحجة هو أن هذا التشتت «برهان بالخُلف» كما يقول المناطقة على أهمية العمل والنضال من أجل تعميق الوعي العربي المشترك. وبتعبير آخر، إن ما نشهد من فرقة وشتات هو نتيجة (وليس سبباً) لغياب العمل الجاد من أجل إذكاء الوعي العربي وتمتين الروابط بين أبناء البلدان العربية. ولا حاجة إلى القول إن الشعور القومي لدى أي أمة من الأمم، مهما يكن أصيلاً ومستنداً إلى عوامل موضوعية، يحتاج دوماً إلى إذكاء وتعبئة، وإن

---

(١) يحسن الرجوع إلى محاضرة لنا ألقيت في مؤسسة عبد الحميد شومان بعَمّان في ٢٠/٥/١٩٩٠ بعنوان: «القومية العربية بين التجديد والترشيد والردة»، ونشرتها مجلة **المستقبل العربي** البيروتية في عددها رقم ١٤١، تاريخ ١/١١/١٩٩٠. كما يحسن الرجوع كذلك إلى كتابنا **القومية العربية والنظام العالمي الجديد**، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٣.

الوحدة القومية لا تتم من تلقاء ذاتها سهواً رهواً، بل لا بد من العمل اليومي الدائب في سبيلها، ولا بد من رسم الصور المرحلية التي ينبغي أن تأخذها عبر الزمن. فالقومية، شأنها شأن أي حركة اجتماعية، لا بد أن تمر بمراحل تطور مختلفة. وهذا التطور لا يتم من تلقاء ذاته ولا يُترك وشأنه، بل لا بد أن يهديه عمل فكري وسياسي منظَّم. ونجد ـ مع الأسف ـ في مسيرة القومية اليهودية نفسها (ولاسيما في مرحلة الفكر الصهيوني) مثالاً واضحاً على هذه الحقيقة[1]. بل لنا في ولادة الولايات المتحدة الأمريكية نفسها وتكوينها دولة اتحادية، بعد أن كانت مجزأة إلى ثلاث عشرة ولاية مضطهدة ومستعمَرة، مثال بارز آخر، لاسيما أن تكوّن الدولة الاتحادية كان نتيجة نضال طويل وجهود مضنية قادها دعاة الاتحاد بوجه خاص، من أمثال هاملتون وماديسون وجي[2].

وفي الجملة، أفلا يحق لنا أن نقول عن الوحدة العربية ما قاله ميتران عن الوحدة الأوروبية: «إن فرنسا وطني ولكن أوروبا مستقبلي»؟ وهل من مستقبل للأمة العربية، في عصر الكتل الكبيرة وفي مواجهة المطامع الإسرائيلية وما وراءها، إلا التكتل العربي وتكوين كيان عربي متكامل فعّال؟

ونقول عابرين، في الرد على من يخال أن ثمة تناقضاً بين الدعوة القومية والدعوة الإنسانية، إن الدعوة القومية هي الدعوة الإنسانية الحقّة، وإن إبداع الإنسان إبداعاً مبتكراً من أجل أمته والإنسانية لا يكون إلاّ إذا انغمس في حياة أمته وشعبه، يعمل من خلالها من أجل

(١) يحسن الرجوع في هذا إلى الكتاب الهام الآتي: Alain Dieckhoff: *L'Invention d'une nation*, Paris, NRF, 1993.

(٢) انظر كتاب الدولة الاتحادية من تأليف هاملتون وماديسون وجي، ترجمة جمال محمد أحمد، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٥٩.

وطنه ومن أجل الإنسانية. والمشاركة الحقة في العطاء العالمي والمغامرة العالمية لا يمكن أن تتم إلاّ بوساطة الأمة. وبدون ذلك، يصبح تاريخ الإنسانية صراعاً مستمراً بين الأمم. وفي داخل الوطن العربي، لا وقاية من الصراع بين الدول العربية إلاّ إذا قام كيان ناظم للعلاقات فيما بينها، على نحو ما جرى في الدولة الاتحادية الأمريكية التي نظّمت الصلات بين الولايات المختلفة. فالجوار بين الدول، كما قال ماديسون، أبرز رواد الوحدة الأمريكية، يولّد الخصام لا الوئام. ولا ينقذ الدول المتجاورة من الخصام إلا وجود هيئة ناظمة للعلائق فيما بينها، لها سلطة فعلية عليها (كما حدث في الولايات المتحدة).

ولعل من المفيد، في مجال بيان العلاقة المتبادلة بين القومية والإنسانية، أن نذكر عبارة المفكّر الفرنسي الشهير ادغار موران في حديثه عن العلاقة بين الوحدة الأوروبية والعالم (وهي علاقة تصدق على أي كيان موحد، وتصدق على الكيان العربي بوجه خاص) في كتابه الشهير: **التفكير في أوروبا** الذي صدر عام ١٩٨٧: «إن علينا أن نعيد تجذّرنا في أوروبا كي ننفتح على العالم، كما أن علينا أن ننفتح على العالم كي نعيد تجذّرنا في أوروبا». ذلك أن الانفتاح والعودة إلى استقاء الينابيع أمران مترابطان، كما يقول أيضاً.

٥ ـ ٣ ـ ومن أبرز أمائر الفكر الذي يسود في مرحلة الانحسار القومي التي تمرّ بها الأمة العربية، **ذعر بعض المفكّرين وسواهم من إسرائيل وسلطانها** وسلطان مَنْ وراءها، الأمر الذي يبرر عندهم الانجراف مع التيار الذي تفرضه إسرائيل وقبول ما تمليه دون قيد أو شرط. ليس هنالك من ينكر قوة إسرائيل العسكرية والثقافية، وليس هنالك من يجهل دعم الولايات المتحدة وسواها من الدول الغربية لها دعماً لا حدود له، غير أن علينا أن نضع في مقابل هذا التفوق الإسرائيلي مواطن القوة عند العرب:

٥ ـ ٣ ـ ١ ـ فالوطن العربي، إذا تآخذت أوصاله وكان كالجسم المرصوص، يملك طاقات مادية ومالية وبشرية وسياسية كبيرة، ويملك طاقات عسكرية واستراتيجية لا يُستهان بها، ويملك من ورائه قوى عالمية كثيرة يُمكن أن تكون إلى جانبه ـ هذا إنْ أحسن الإفادة من طاقاته المادية والاستراتيجية والدبلوماسية ـ ويملك رصيداً إسلامياً تتجاوز عدته مليار إنسان. . . إلخ.

٥ ـ ٣ ـ ٢ ـ **ثم إن من الوهم الظن بأن الوجود الإسرائيلي قادر على التغلّب على الوجود العربي، مهما يربح من معارك، بل العكس هو الصحيح**: فهو مطوق بـ «البحر العربي»، وهذا الطوق إذا أُحكم ربطه يشدّ على خناقه. ولقد شكت إسرائيل وتشكو دوماً من «عجز النصر» كما سبق أن قلنا. فالنصر العسكري، مهما يكن حجمه، لن يخرجها من عزلتها ولن يتيح لها أن تسوق حياة طبيعية، وسوف يجعل منها دوماً، كما قلنا، مجرد «جهاز عسكري له دولة».

٥ ـ ٣ ـ ٣ ـ وفوق هذا وقبل هذا، يُقابل القوة العسكرية والثقافية لإسرائيل **ضعف معنوي مقيم في كيانها، قوامه افتقارها إلى هوية صادقة حقة**، واصطراع التيارات المختلفة فيها منذ قيام الصهيونية حتى اليوم صراعاً لا هوادة فيه حول معنى ومبرر وجودها وحدود ذلك الوجود، وقد برز هذا الصراع واضحاً جلياً في مقتل رابين. وهذا التمزق في «هوية إسرائيل» سوف يزداد خطره، ولاسيما في حال تحقيق السلام، وهو بمثابة **قنبلة موقوتة** يُمكن أن تفجّر الكيان الإسرائيلي، كما أجمع على ذلك عدد كبير من المحللين في داخل إسرائيل وفي الغرب، لاسيما عند البحث في مشكلة المستوطنات ومشكلة اللاجئين ومشكلة القدس[1]. ويرجع هذا التمزق في هوية

(١) من أجل مزيد من التفصيل، يحسن الرجوع إلى كتابنا الذي صدر حديثاً: **إسرائيل وهويتها الممزقة**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦.

إسرائيل إلى علل عريقة مقيمة في التاريخ اليهودي منذ أقدم العصور (وإلى التفسيرات المتباينة للتوراة والتلمود، والاجتهادات المتعددة بشأن الشريعة اليهودية ـ الهالاخا) وإلى العجز عن تعريف «اليهودي» واضطرار بن غوريون إلى تفسير الماء بالماء حين قال: «إن اليهودي هو الذي يشعر بأنه يهودي». كما يرجع إلى الصراعات الإيديولوجية التي رافقت ولادة الصهيونية، والتي رافقت مخاض دولة إسرائيل بعد ذلك، والتي ذرّ قرنها بعد قيام الدولة، واشتد أوارها بعد حرب عام ١٩٦٧، بوجه خاص، والتي اشتعلت نارها وأخذت مظاهر صارخة بعد انطلاق محادثات السلام.

لقد أدى الضعف المعنوي والصراع الإيديولوجي في الاتحاد السوفياتي إلى انهياره رغم قوته العسكرية والتقانية الضخمة. ورغم الفارق بين الحالين، قد يؤدي الوهن المعنوي إلى انهيار إسرائيل رغم قوتها العسكرية والثقافية، لاسيما إذا أذكى هذا الوهن عملٌ عربي واعٍ ومنظَّم، أو الصراع المرتقب بين القوى الكبرى في العالم، أو ضيقَ العالم عاجلاً أو آجلاً بمناورات إسرائيل وألاعيبها ومطالبها. ويؤكّد هذا الاحتمال أن إسرائيل تكاد تفقد مبررات وجودها أمام الرأي العام العالمي. فلا هي استطاعت أن تجمع يهود الشتات، ولا هي استطاعت أن تحقّق رغبة الغرب ـ حين أوجدها ـ في أن يتخلص من أعباء الوجود اليهودي في دياره، وأن يجد حلاً نهائياً لمشكلة اليهود لا يؤرّقه بعده مؤرّق. فإسرائيل اليوم تحمّل الوجود الغربي من مشكلاتها وأعبائها ومستلزمات المحافظة عليها أكثر بكثير مما يمكن أن يتحمل من جراء وجود اليهود في دياره. بل إن هذا الوجود اليهودي في بلدان الغرب ازداد شراسة وانعزالاً وطغياناً على سواه وتحكّماً في مصير العالم بعد قيام دولة إسرائيل.

٥ ـ ٤ ـ وأخيراً، يبرز تيار يرى أن السلام مع إسرائيل ـ أياً كانت

صيغته ـ سوف يجلب الرخاء الاقتصادي والاجتماعي للمنطقة بأسرها (منطقة الشرق الأوسط). ومناقشة مثل هذا الرأي يلتهم الصفحات الطوال، وقد كُتب حوله الشيء الكثير. وحسبنا في الرد عليه أن نقول بلغة أشبه بلغة البرقيات: إن التفاعل الاقتصادي بين مجموعة من الدول يُمكن أن يؤدي إلى نمو اقتصادي في هذه البلدان جميعها، وأن يكون أشبه بالتفاعل الكيميائي الذي يخرج منه مركب جديد أفضل. ولكن هذا يشترط أن يقوم هذا التفاعل أصلاً انطلاقاً من هذا الهدف، أي أن يُصاغ بشكل يؤدّي إلى بلوغ هذا الهدف. **فنحن لا نستخرج من الأشياء إلاّ ما نضعه فيها.** ومن الواضح ـ في حال التفاعل الاقتصادي بين الدول العربية وإسرائيل ـ أن مثل هذا التفاعل لن يرسم لمصلحة الجميع، ومن أجل إجزال المردود الاقتصادي للمنطقة بكاملها، بل يتمّ رسمه ـ كما نرى ونشهد منذ اليوم ـ من خلال تحقيق الغلبة والهيمنة الاقتصادية لإسرائيل. إن الدول الأوروبية تحاول في سعيها إلى الوحدة الاقتصادية الواسعة ثم إلى الوحدة السياسية، أن تحقّق وحدة اقتصادية تعود عليها جميعها بالفائدة. ولكنها تفعل ذلك من خلال عمل دؤوب وطويل ومدروس يقوم به مجلس الوحدة الاقتصادية الأوروبية، وتلقى في ذلك عنتاً وتواجه صعاباً على الرغم مما بينها من أواصر القربى الحضارية والفكرية. أما الوحدة الاقتصادية التي يدعو لها أنصار الشرق الأوسط الجديد، فهي تقوم بين جبهتين متعاديتين، وتسير وفق الخطوات التي ترسمها إسرائيل ومَنْ وراءها. ولعلّها تريد في نهاية المطاف أن تحقّق ما قاله شمعون بيريس حين وزّع النشاط الاقتصادي المنشود بين التقانة الإسرائيلية واليد العاملة العربية وأموال النفط (ومياه تركيا أيضاً)، وذلك كله من أجل إسرائيل أولاً وآخراً. فالتقانة الإسرائيلية في حاجة إلى يد عاملة رخيصة (تأمل أن توفّرها من مصر بوجه خاص)، وأموال تستثمرها تقدّمها لها البلدان النفطية، ومياه

ترويها تقدّمها لها تركيا بوجه خاص، فضلاً عن تقاسم المياه مع بلدان عربية أخرى (كالأردن ولبنان وسورية). وحسبنا أن نقرأ كتاب بيريس **الشرق الأوسط الجديد** لندرك أبعاد التعاون الاقتصادي كما تعنيه إسرائيل.

يُضاف إلى هذا أن تحقيق أكبر فائدة ممكنة من التفاعل الاقتصادي مع إسرائيل يفترض قيام تنسيق اقتصادي وسياسي كامل ومتكامل فيما بين البلدان العربية. وهذا ما نجد عكسه حتى اليوم، في شتى المؤتمرات الاقتصادية التي عقدت تحت مظلة السلام، وفي شتى الاتفاقات التي قامت ـ قبل الأوان ـ بين بعض البلدان العربية وإسرائيل. والحقّ أن الوحدة الاقتصادية المجدية، حتى فيما بين البلدان العربية وحدها، ينبغي أن تكون رديفاً لوحدة العمل السياسي ونتيجة له، ولا يمكن أن تأتي قبلها أو بدونها.

ولا ننسَ أخيراً أن النظام الاقتصادي الشرق أوسطي، الذي يجري الحديث عنه، يتمّ في إطار الربط بينه وبين الاقتصاد العالمي وبين رؤوس الأموال الأجنبية ولاسيما رؤوس الأموال الأمريكية اليهودية وسواها. **وهذا الانفتاح العالمي في أفضل أحواله هو دوماً في مصلحة الدول المتقدمة**، وهدفه الأساسي في معظم الأحيان جعل الدول النامية سوقاً استهلاكية لبضائع الدول المتقدمة. فما بالنا عندما يتمّ هذا الانفتاح في إطار الانفتاح أو الغرق في خضم الاقتصاد الإسرائيلي واليهودي العالمي، وفي إطار سيطرة الشركات متعددة الجنسية، وفي إطار **غلبة سوق المال** في العالم كله على الاقتصاد، وخضوع الاقتصاد للمصارف والشركات المموِّلة الكبرى التي تسيطر على ٨٠٪ من حركة انتقال الأموال في العالم؟

٦ ـ وبعد، إن تذكّر نكبة عام ١٩٤٨ والرجوع إلى ذيولها وآثارها السياسية والفكرية والأدبية، كما رأينا، يثير لدى المواطن العربي

اليوم، الذي بعدت الشقة بينها وبينه، شجوناً كثيرة، ويُقدِّم عبراً ودروساً قمينة بالتأمل:

لقد أدت نكبة عام ١٩٤٨ ومن بعدها حرب الخامس من حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧، إلى انتفاضة الكيان العربي بكامله، ينظر في النكبة ويحلّلها ويبيّن عواملها وأسبابها ويرسم سبل الخروج منها. وقد لا نغالي إذا قلنا إن نكبة عام ١٩٤٨ وكارثة عام ١٩٦٧ أدّتا إلى انتصار الفكر على السياسة، وإلى ظفر المثقفين على الساسة، إذ أتاحت لهؤلاء المثقفين حرية فسيحة أدّت إلى تعرية الوجود العربي واتهام كل ما فيه، إنْ لم نقلْ إنها أدّت إلى عملية «جَلد للذات». ومهما يكن من أمر، ففي وسعنا أن نقول إن الأمة العربية التي هُزمت في تينك المعركتين، شعرت شعوراً حاداً بأنها **خسرت المعارك ولكنها لم تخسر الحرب**، وأنها لم تهزم بل غُلبت على أمرها إلى حين، لعوامل كان من الممكن اجتنابها، وأن عليها بالتالي أن تعبىء نفسها من جديد تعبئة أوعى وأقدر. وهذا ما تجلّى واضحاً في ذلك المؤتمر الذي عقدته «جمعية الخريجين الكويتية» حول «أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي» عام ١٩٧٤، والذي شاركت في أعماله نخبة من كبار رجال الفكر في الوطن العربي[١]. وهذا ما استبان أيضاً في سلسلة المحاضرات التي ألقيت في دار **الندوة اللبنانية** ببيروت عام ١٩٦٨، تحت عنوان: «بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧»، والتي تولت إلقاءها نخبة من المفكّرين، وفي ما لا يحصى عدده من المؤتمرات والندوات والكتابات. ولعلّ حرب عام ١٩٧٣ بعض نتائج تلك التعبئة القومية.

وقد لا يكون من السرف أن نقول إن ما جرى في البلدان العربية وما سرى في الفكر العربي والشعور العربي بعد تلك الحرب يمثّل

(١) مؤتمر **أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي** (٧ ـ ١٢ نيسان/ إبريل ١٩٧٤)، جمعية الخريجين، جامعة الكويت، ١٩٧٥.

انقطاعاً عن الروح التي أذكت تلك الحرب والتي سادت بعد الكارثتين، ولا يمثّل بالتالي امتداداً لها وإمعاناً فيها. ولعلّ النجاح النسبي الذي حققه العرب في معركة عام ١٩٧٣ ولّد لديهم ضرباً من الشعور بالطمأنينة. ولعلّ الشعور بالتكافؤ النسبي مع العدو ساعد على لأم الجراح، وأضعف «الحاجز النفسي» القوي الذي كان يقوم بين العرب وعدوهم.

على أن مشاعر النقمة والعداء والثورة استيقظت من جديد بعد احتلال إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢، ذلك الاحتلال الذي جعل فيلسوف إسرائيل الشهير ليبوفتش(وهو متديّن وصهيوني) يصف إسرائيل بأنها «دولة يهودية نازية» (وقد صرح من قبل أن «حرب الأيام الستة كانت وبالاً على إسرائيل وكارثة تاريخية»)، والذي جعل الشاعر الإسرائيلي يهونتان غيفن يقول - بعد مذبحة صبرا وشاتيلا -: «للمرة الأولى في حياتي أشعر بالخجل لكوني مواطناً في دولة إسرائيل، تلك الدولة التي ينعدم فيها القلب والعقل وتبقى العضلات».

وعلى الرغم من النقمة التي خلّفتها حرب لبنان داخل إسرائيل وخارجها، وعلى الرغم مما أثارته في نفوس أبناء الأمة العربية من ثورة عارمة، وما أحدثته من جراح عميقة، ظلّت مقصرة عن أن ترفع المد العربي إلى مستواه الواجب، لأسباب عديدة لا مجال للتفصيل فيها هنا، على رأسها انعزال مصر عن الصف العربي بعد اتفاقية كامب ديفيد.

ثم جاءت حرب الخليج الأولى وحرب الخليج الثانية وما رافقهما وتلاهما من تمزّق الكيان العربي ويُحرانه وضياعه، ومن سيطرة القوى الأجنبية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، على مقادير الأمور في معظم البلدان العربية. وأدّى ذلك كله إلى انتشار موجة من اليأس والقنوط لدى أبناء الأمة العربية حول مستقبل الأمة العربية.

ووسط هذا الجو من الانحسار القومي والشكوك والتساؤلات

عن مصير العرب، أطلق الرئيس الأميركي جورج بوش مبادرته من أجل عقد مفاوضات سلام بين العرب وإسرائيل! وقد صحّت توقعاته وتوقعات إسرائيل حين تم اختيارهما هذا التوقيت لبدء محادثات السلام، فازداد العِقد العربي انفراطاً، وتمّت المفاوضات وسط جو قاتم من التخاذل العربي، وقام العرب بعملية «انهزام إلى أمام»، فسارع بعضهم إلى الهزيمة خفافاً، وتسابقوا «على الإثم»، وأحجموا حتى عن استخدام «الأوراق الرابحة» التي في أيديهم والتي تمكّنهم من استخراج أفضل النتائج الممكنة من مساومة مع العدو سلّموا منذ البداية بأنهم فيها «الخاسرون».

وكان أخطر ما في هذه المفاوضات قبول بعض المعنيين بها بأن تكون مفاوضات منفردة، تتم مع كل طرف على حدة. وبهذا لم يضعفوا عملية التفاوض فحسب، بل وضعوا السلام منذ البداية على «قطار الفرقة العربية»، وحملّوه، وهو وليد، أخطر معانيه، تعني تفتيت الأمة العربية والإطاحة بوجودها المتكامل الذي هو شرط بقائها في الحرب والسلم.

على أن الكثرة الكاثرة من أبناء الأمة العربية لا تزال على إيمانها الراسخ الذي يزيد في تأكيده وتعميقه ما يجري على الساحة العربية كل يوم، ولا تزال تحمل مشاعرها القومية التي تجلّت قبل نكبة عام ١٩٤٨ وبعدها. وهي تنظر إلى مجرى عملية السلام من خلال مشاعر متعدّدة، فيها المرارة وفيها الرفض وفيها الأمل. غير أن التحليل الموضوعي لمواقفها يكشف في خاتمة المطاف عن أنها تقبل الانتظار والترقّب إلى حين، وتقبل بعض «الهدنة المفروضة»، ولكنها وراء ذلك كله تراقب وتحاسب وتؤيد المواقف الصلبة في سير المحادثات وتتمنى المزيد منها، ولا تقبل الهزيمة أمام إسرائيل باسم السلام، مهما يكن شكلها؛ وتنكر التفريط بأي شبر من الأرض العربية، تلك الأرض التي

هي ملك الأجيال العربية الحاضرة والمقبلة؛ ولا تقبل التطويح بالوجود العربي الموحّد، مصدر القوة والعزّة، والركض وراء وهم خادع، وسراب سلام ليس فيه من السلام إلا الوجه الآخر للحرب، وهو وجه أدهى وأمّر، وهدفه في خاتمة المطاف خلق «إسرائيل العظمى».
ولعلها تردّد في أعماقها معنى كالذي عبّر عنه الشاعر القروي منذ عقود:

أتيناهم بإنجيل المسيح   فجاؤونا بآيات الفتوح

بل لعلها تذكر بيته الشهير:

أما السلام فإننا أعداؤه   حتى يدين بحبه أقوانا

بل لعل صفوتها تعيد إلى الأسماع بيت أبي العلاء المعري، بكل ما فيه من عمق الدلالة وبكل ما يعنيه وسط مجرى الأحداث اليوم:

إذا كان ذعري يورث الأمن فهو لي   أحبّ من الأمن الذي يورث الذعرا

دمشق، ١٧/ ٥/ ١٩٩٦

عبد الله عبد الدائم

مقدمة الكتاب

. طبيعي أن تخلّف الحرب العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٤٨ آثاراً ضخمة في الحياة العربية. ولا نغلو إذا قُلنا إن ما شهدته البلدان العربية من تطورات جذرية في حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، يرجع أولاً وقبل كل شيء إلى هذه المأساة التي هزّت الكيان العربي ووضعته وجهاً لوجه أمام أدوائه وعلله من جهة، وأمام مصيره ومستقبله من جهة ثانية.

لقد واجه العرب ـ بعد هذه الحرب ـ للمرة الأولى في العصر الحديث تحدياً قاسياً وجدياً لوجودهم وكيانهم. وشهدوا دفعةً واحدة خلال أشهر قليلة تألب مجموعة من العوامل ضد مستقبلهم ووجودهم: شهدوا تألب القوى الاستعمارية الكبرى، وعلى رأسها بريطانيا والولايات المتحدة؛ وعانوا معاناة واقعية حاسمة حقيقة أطماع الصهيونية العالمية وأبعاد مؤامراتها وأنماط سلوكها؛ وأدركوا فوق هذا وذاك، بل قبل هذا وذاك، آفات الكيان العربي وأدواءه، وعجزه عن مواجهة المؤامرات والتحدّيات العصريه بالأبنية المريضة والأساليب القديمة.

ومن هنا انتفض الجسم العربي، محاولاً أن يتعرّف على مكانه وموقعه وسط الوجود العالمي، وأن يحدّد دوره وسلوكه فيه، ومجرِّباً أن يفهم ذاته فهماً أعمق وأن يعيد بناء وجوده بحيث يُصبح قادراً على الوقوف في وجه التحدّيات المصيرية التي تحيط به من كل جانب، وبحيث يغدو وجوداً عصرياً حديثاً يبني مصيره بقواه الذاتية ويستخرج

إمكاناته المادية والبشرية الدفينة ويحيلها قوة قادرة على الصمود، طامحة إلى دخول العصر والتعامل معه بلغته وأساليبه وتقنياته.

وقد تجلّى هذا الموقف الجديد ـ كما سنرى ـ في شتى ميادين الحياة العربية: تجلّى في علاقات الدول العربية بالدول الكبرى وبالمجتمع العالمي وأدّى إلى تغييرات جذرية في هذا المجال؛ وتجلّى في الأنظمة السياسية في البلدان العربية وأحدث انقلابات وتغيرات واسعة فيها؛ وتجلّى في الإيديولوجية العربية وأدّى إلى ولادة أفكار وأنظار سياسية تستجيب لمطالب المرحلة الجديدة؛ وتجلّى في الفكر العربي عامة وطرح عليه تساؤلات عميقة دفعته إلى توليد نظرة جديدة وتيارات محدثة في أمور الاقتصاد والدين والحياة الاجتماعية والعلم والفلسفة والأدب وسواها.

ولقد كان مقدراً لهذا المخاض أن يؤتي ثمراته وأن يخلق كياناً عربياً عصرياً قوياً، وأن يكوّن طاقة عربية في مستوى التحدّيات ومستوى العصر، لولا أن عاجلته القوى الامبريالية والصهيونية بضربات متلاحقة تستهدف تعطيل انطلاقته، برزت في عدوان عام ١٩٥٦ خاصةً، وكانت خاتمة المطاف فيها حرب الخامس من حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧.

ولقد كان طبيعياً أن تنصرف أذهان العرب بعد حرب عام ١٩٤٨ أولاً وقبل كل شيء إلى التأمل في أحداث تلك الحرب واستخلاص الدروس منها. ولقد كان تقييم الحرب وتقرّي بواعثها ومجراها وخلفياتها المنطلق الأول لديهم نحو ما أرادوه من إدراك جديد لمستلزمات نضالهم ومن وعي أحدث لحياتهم وضرورات تغييرها.

الفصل الأول

تقييم عام لحرب عام ١٩٤٨

لم تتكشف وقائع حرب عام ١٩٤٨ وقضاياها للرأي العام العربي بصورة واضحة وكاملة إلاّ على مراحل وبعد لأي. صحيح أن الجمهور العربي أدرك منذ البداية، بحدسه وحسّه السياسي الفطري، ما كان في تلك المعركة من تآمر القوى الاستعمارية وتضافرها، وما كان من تضامنها مع الصهيونية العالمية. وصحيح أنه أدرك بفطرته السليمة وتجربته الماضية ومتابعته للأحداث ما صاحب تلك الحرب من تخاذل في الصف العربي ومن عجز في تصرفاته ومن ضعف أو تآمر في مواقف حكّامه. غير أن البيّنات الموضوعية لم تتضح له إلاّ بعد أن أخذ يطلّ على أحداث الحرب الحقيقية من خلال الوثائق والمذكرات والدراسات المتصلة بها. يُضاف إلى هذا أن كثيراً من حقائق تلك الحرب.ودخائلها قد طمستها خلال فترة من الزمن الأنظمة السياسية العربية المسؤولة عن النكبة وحاولت تشويهها وتزييفها. وقد تضامن مع هذا التزييف وأيّده ما قذفت به الدعايات الاستعمارية والصهيونية من صور مشوّهة مغرضة حول أحداث تلك الحرب ومحركاتها.

ولا نستطيع أن نزعم اليوم أن كل شيء قد اتضح في ما يتصل بخفايا الحرب وأسرارها. فلا يزال ثمة مجال واسع لمزيد من التقصي والدراسة، ولا بد أن تكشف مثل هذه الدراسة عن جوانب لا تزال غامضة.

ومع ذلك فقد ظهرت منذ ذلك التاريخ حتى اليوم طائفة من الوثائق والدراسات التي تمكّننا من الوصول إلى تقييم قريب من الحقيقة. وما نجده بين تلك الوثائق والدراسات من تلاق واتفاق - وإن كان بعضه يرجع إلى نقلها عن مصادر واحدة - يسمح لنا بأن نصل إلى قدر كبير من الثقة.

وليس هدفنا في هذا الفصل أن نعيد رواية أحداث الحرب وتمحيصها والتدقيق فيها، بل مهمتنا تقتصر على أن نكشف عن العوامل التي أدّت إلى هزيمة العرب عام ١٩٤٨.

ولعلّ خير أسلوب ننتهجه أن نردّ وقائع الحرب وبواعثها ونتائجها إلى العناصر الأساسية المكوّنة لها، وأن نرى دور كل عنصر من هذه العناصر، بالإضافة إلى تفاعل هذه العناصر فيما بينها. ومثل هذا الأسلوب يقترب من المنهج الحديث الذي يُعرف باسم «منهج تحليل النظم»، وهو منهج ساد في شتى ميادين الدراسة اليوم.

وإذا نحن أجرينا مثل هذا التحليل، وجدنا أن العناصر المقوّمة لتلك الأحداث، ترتدّ في النهاية إلى العناصر الخمسة التالية:

١ - بريطانيا ودورها الرئيسي في الحرب.

٢ - الولايات المتحدة ودورها المتكامل مع دور بريطانيا.

٣ - الصهيونية العالمية وقواها في فلسطين وخارجها.

٤ - هيئة الأمم ومجلس الأمن كعاملٍ مستقلّ حيناً، وكعامل متكامل مع دور بريطانيا والولايات المتحدة والصهيونية في معظم الأحيان.

٥ - العرب ومسؤوليتهم الذاتية.

وبديهي أن هذه العناصر الخمسة عناصر متآخذة متكاملة، وأن الفصلِ بينها فصل مصطنع إلى حد بعيد: فدور بريطانيا لا ينفصل في الواقع عن دور الولايات المتحدة، لاسيما بعد أن دخلت هذه الأخيرة

طرفاً أساسياً في قضية فلسطين، وبعد أن سلّمت لها بريطانيا بهذا الدور بل تخلّت لها عنه إلى حد كبير (في إطار التنافس بين السياستين في الشرق الأوسط من جهة، وفي إطار الاتفاق حول الأهداف النهائية بينهما في ما يتعلق بالقضية الفلسطينية من جهة ثانية). ودور بريطانيا والولايات المتحدة ـ وهو دور متكامل إلى حد بعيد ـ لا ينفصل أيضاً عن دور الصهيونية العالمية وأثرها في توجيه سياسة كل من الدولتين. وهيئة الأمم نفسها كانت موجَّهة في هذا المجال بأهداف السياسة البريطانية والأميركية، ولم تستطع الخروج عليها إلاّ في الظاهر. وحتى دور العرب أنفسهم نجده في أعماقه محكوماً إلى حد كبير بالتأثير المباشر وغير المباشر للسياسة البريطانية والأميركية، سواء عن طريق بعض الحكومات العربية المنخرطة في تلك السياسة، أو عن طريق فرض تلك السياسة على الحكومات العربية بالإكراه حيناً وبالخداع أحياناً، أو عن طريق الصهيونية نفسها والتستر وراءها والتآمر الخفي معها في سبيل بلوغ الغايات الأصلية لكلتا الدولتين.

على أن هذا التفاعل والتكامل بين العناصر المؤثّرة في المعركة، وهذه الصلة الدائرية القائمة بينها، لا يحولان دون التريث عند كل عنصر من العناصر على حدة، من أجل جلاء دوره الخاص وشكل إسهامه في الحرب ونتائجها.

ولعلّنا إذا أردنا أن نردّ هذه العناصر جميعها إلى العنصر الأمّ، إلى «عنصر العناصر» إنْ صحّ التعبير، ألفينا ذلك العنصر متجسداً في ذلك الحلف الاستعماري ـ الصهيوني، المكوّن من بريطانيا والولايات المتحدة والصهيونية، وفي قلب هذا العنصر تحتل بريطانيا دون شك الدور الرائد.

فلنمضِ إذن إلى تحليل أثر كل عنصر من هذه العناصر على حدة، غير ناسين التفاعل فيما بينها، مدركين أنها في النهاية عنصر

واحد متكامل جوهره الاستعمار والصهيونية، وقلبه ومحركه الاستعمار البريطاني، ورأس الحربة فيه الإمبريالية الأمريكية.

أولاً ـ دور الاستعمار البريطاني

ترجع أهمية هذا الدور بطبيعة الحال إلى أن بريطانيا كانت هي الدولة المنتدبة على فلسطين. ومن هنا كان دورها أساسياً منذ البداية في ولادة المشكلة الفلسطينية وفي تفاقمها وفي ما انتهت إليه بعد حرب عام ١٩٤٨.

وليس قصدنا هنا أن نسرد قصة بريطانيا مع المسألة الفلسطينية والمراحل التي مرّت بها سياستها الرامية إلى تهويد فلسطين وإلى خلق كيان إسرائيل في النهاية. فهذه قصة معروفة، ولا حاجة بنا إلى أن نعود إلى جذور تلك القصة، بدءاً من وعد بلفور عام ١٩١٧ بل قبله. بل حسبنا أن نتوقف عند دور بريطانيا في أحداث ١٩٤٨ وما سبقها مباشرة ومهّد لها.

والحق، إن التغير الأساسي الذي طرأ على السياسة البريطانية تجاه فلسطين، والذي أدّى إلى حرب عام ١٩٤٨، قد بدأ عملياً منذ الحرب العالمية الثانية، حين استطاعت الصهيونية أن تنتزع ـ بتأثير العون الذي قدّمته إلى بريطانيا وحلفائها أثناء الحرب[١] ـ وعوداً جديدة برز فيها الاعتراف بسيادة اليهود على جزء من فلسطين على الأقل. ففي ربيع عام ١٩٤٣ كتب تشرشل إلى حاييم وايزمن مؤكّداً أن حكومة صاحب الجلالة قررت الاعتراف بسيادة اليهود على جزء من فلسطين (مما يعني العودة إلى مشروع التقسيم والتنكّر للكتاب الأبيض الذي أعلنت بريطانيا من قبل تمسكها به مهما كلف الأمر). وفي نيسان

(١) بلغ عدد اليهود الذين أدخلتهم بريطانيا في الجيش البريطاني أثناء الحرب العالمية الثانية حوالى ٣٠ ألف شخص.

(إبريل) من عام ١٩٤٤، قررت اللجنة التنفيذية لحزب العمال البريطاني العمل على تكبير رقعة البلاد الفلسطينية التي ستُمنح لليهود بحيث تستوعب أكبر عدد ممكن منهم.

على أن الترجمة العملية لهذا الموقف البريطاني لم تتخذ شكلها إلاّ بعد أن خطت بريطانيا خطوات عملية حاسمة أدّت في النهاية إلى حرب عام ١٩٤٨ ونتائجها، ونعني بها: **أولاً** إعلانها الجلاء عن فلسطين في آب (أغسطس) ١٩٤٨، وانسحابها الفعلي منها قبل هذا التاريخ (١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨) دون أن تقدم أي حل لمشكلتها، وتسهيلها بذلك مهمة استيلاء اليهود على أكبر جزء ممكن من فلسطين؛ **وثانياً** تخليها عن مسؤولياتها للأمم المتحدة وتسخيرها هذه الأخيرة ـ بالتآزر مع الولايات المتحدة ـ لتحقيق أهدافها ووعودها للصهيونية العالمية، والتستر وراءها في سبيل الوصول إلى أغراضها المرسومة؛ **وثالثاً** إعلانها رسمياً إدخال الولايات المتحدة طرفاً في القضية وفي أي حلّ لها، كما عبّر عن ذلك البيان الذي أدلى به المستر بيفن، وزير الخارجية البريطانية، أمام مجلس العموم بتاريخ ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥. وبذلك وضعت القضية الفلسطينية نهائياً في يد الحلف الاستعماري البريطاني الأميركي الصهيوني.

وبعد هذا التغير الأساسي في موقف بريطانيا وهذه الخطوات العملية التي خطتها، سارت في طريق تنفيذ خطتها سيراً متدرجاً، واصطنعت لذلك مختلف الوسائل والسبل، بما فيها الاستعانة بحلفائها من العرب أنفسهم للوصول إلى الغاية المنشودة.

أما الغاية المنشودة هذه فتدلّ الأحداث على أنها كانت في الواقع إنشاء دولة إسرائيل وتسليمها أكبر جزء ممكن من الأرض الفلسطينية، وإلحاق ما تبقى من هذه الأرض بالمملكة الأردنية الهاشمية.

إن تحليل الأحداث قبل حرب عام ١٩٤٨ وأثناءها وبعدها،

أوصلنا إلى تقرير هذه الحقيقة السابقة، وهي أن الغاية التي استهدفتها بريطانيا، منذ عام ١٩٤٣ على أقل تقدير، كانت أن تحقق عملياً وعد بلفور وأن تنشىء الكيان القومي الصهيوني، بل أن تتجاوز حدود هذا الوعد نفسه فتغفل الشعب الفلسطيني وتساعد الصهيونية على طرده من بلاده، وتدمج البقية الباقية منه في الكيان الأردني.

وفيما يلي تحليل سريع لأهم الأحداث التي تشهد على موقف بريطانيا هذا:

١ ـ جلاء بريطانيا عن فلسطين:

أ) في أوائل نيسان (إبريل) ١٩٤٧ أرسلت بريطانيا مذكرة إلى الأمين العام للأمم المتحدة تعلن فيها تخلّيها عن الانتداب في فلسطين وتطلب منه عرض القضية الفلسطينية في دورة خاصة. وقد فعلت ذلك رغبةً منها في تحويل القضية إلى هيئة الأمم المتحدة، من أجل تيسير قرار التقسيم الذي رفضه العرب آنذاك. ويؤكد ذلك أن المندوب البريطاني أعلن عزم حكومته على الجلاء فوراً عن فلسطين في الجلسة التي عقدتها الأمم المتحدة في ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧ لدراسة تقرير «اللجنة الدولية للتحقيق» الذي أوصى في ما أوصى بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية. وكان واضحاً إذن أن الإعلان البريطاني في هذه الجلسة بالذات كان يستهدف استعجال الأمم المتحدة في إقرار التقسيم وإعلان الدولة اليهودية، بحجة خطر الفراغ الإداري والعسكري على الأمن والاستقرار، في الفترة ما بين انتهاء الانتداب وإقرار الحل للقضية.

ب) ولم تكتفِ بريطانيا بذلك بل أعلنت فعلاً انتهاء الانتداب في ١٥ آذار (مارس) ١٩٤٨، وأعلنت انتهاء الجلاء في آب (أغسطس) ١٩٤٨، وأكدت أنها سوف لا تمارس أية سلطة إدارية أو عسكرية

خلال الفترة الواقعة بين هذين التاريخين أو بعدها إلا إذا اتفق الطرفان المتنازعان (يقيناً منها أن تحقيق هذا الشرط أصبح مستحيلاً).

ج) وقد أدّى ذلك فعلاً ـ كما نعلم ـ إلى صدور قرار التقسيم عن هيئة الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، وأعقبه رفض عربي له ونضال عربي ضده، صحبته مجازر بشرية عمّت أنحاء البلاد. ومع ذلك أصرّت بريطانيا على تنفيذ قرار الانسحاب النهائي، بل جعلت موعده يوم ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨. وقد فعلت ذلك على الرغم من نداء مجلس الأمن إليها في ١٧ نيسان (إبريل) بالبقاء في فلسطين كدولة منتدبة تحت إشراف الأمم المتحدة إلى حين التوصل إلى حل جديد للمشكلة. وهكذا تركت البلاد نهباً للفوضى والاضطراب.

د) بل إنها أخذت تخلي معسكراتها وتحصيناتها وأسلحتها لليهود وتستعدي العرب عليهم وتستعديهم على العرب، أملاً منها في تيسير المهمة أمام اليهود.

هـ) وعندما بدأت تسحب قواتها من فلسطين فعلاً، بدأت بالجلاء عن المناطق اليهودية أولاً وأخذت تسلّم سلطات هذه المناطق للوكالة اليهودية، وشرعت في تسليمها المعسكرات والتحصينات والمطارات ومستودعات الذخيرة. وهكذا ساعدت اليهود على خلق جهاز إداري عسكري قبل ستة أشهر على الأقل من انسحابها النهائي. في حين أنها لم تنسحب من المناطق العربية حتى آخر أيام الموعد المحدد، وظلت تمارس صلاحياتها كاملة ضد الشعب العربي الفلسطيني وضد استعداداته العسكرية للدفاع عن نفسه أمام هجمات اليهود. وقاومت إدخال الأسلحة إلى المناطق العربية ودخول المتطوعين الشعبيين من البلدان العربية إلى فلسطين.

و) قبل ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، الموعد المحدد للجلاء، سلّمت بريطانيا اليهود استحكامات «خط إيدن» الذي أقامه الإنكليز زمن

الحرب العالمية الثانية ضد الغزو الألماني، على الحدود الشمالية الشرقية من فلسطين.

ز) سكتت بريطانيا عن جرائم اليهود الوحشية خلال الفترة التي سبقت الجلاء، وعن الاعتداءات المتكررة التي قاموا بها في المناطق والأحياء العربية، وعن جو الإرهاب الذي خلقوه ضد السكان العرب. وقد اُرتُكبت مجزرة دير ياسين الشهيرة تحت سمعها وبصرها، ثم مجزرة قرية ناصر الدين القريبة من طبريا، وسواهما من المجازر والأعمال الوحشية التي أدت إلى تهجير عشرات الألوف من المواطنين العرب من حيفا ويافا والقدس والقرى المحيطة بها والواقعة ضمن المناطق اليهودية[1].

وهكذا لم يأتِ ١٥ أيار/ مايو، موعد نهاية الانتداب، حتى دخلت تحت سيطرة اليهود معظم المساحة المخصصة في التقسيم لليهود ومساحة كبيرة أخرى مما هو مخصص للعرب في قرار التقسيم، مثل يافا وجزء كبير من الجليل الغربي وجزء كبير من قرى اللد والرملة.

ومن هنا نرى كيف يسّر الإنكليز ـ عن طريق لعبة الجلاء ـ قيام الدولة اليهودية قبل مغادرتهم فلسطين، وكيف برّوا بوعودهم لليهود فمكّنوهم من السيطرة على أكبر جزء ممكن من البلاد. وبفضل هذا العون استطاع اليهود أن يسارعوا في الدقيقة الأولى بعد انتهاء الانتداب رسمياً إلى إعلان قيام دولتهم، لأنها كانت قائمة فعلاً نتيجة للخطة المخادعة التي رسمها الإنكليز.

٢ ـ موافقة بريطانيا على إعلان العرب الحرب وشروطها:

قرّرت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في ١٢ نيسان

---

(١) سنرى فيما بعد دور هذا الإرهاب الذي قام به اليهود في كثير من المدن العربية والذي سكتت عنه بريطانيا أو شجعت عليه.

(إبريل) ١٩٤٨ تدخّل الجيوش العربية لإنقاذ فلسطين، وحدّدت يوم ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ موعداً لتحرّك تلك الجيوش. وقد فعلت ذلك تحت ضغط الواقع الأليم الذي صارت إليه فلسطين قبل جلاء الإنكليز ـ كما رأينا ـ وتحت ضغط المظاهرات الشعبية الصاخبة في البلدان العربية جميعها.

وتثبت الوثائق[1] أن بريطانيا لم تعارض في اتخاذ هذا القرار بل أيدته، ولكنها اشترطت لإنفاذه شرطاً واحداً يفقده كل معناه، وهو ألا تغزو الجيوش العربية الأراضي التي هي من نصيب اليهود بحسب مشروع التقسيم.

يبرز هذا واضحاً في الاتفاق الذي تم بين المستر بيڤن وزير الخارجية البريطانية وتوفيق أبو الهدى رئيس الوزارة الأردنية، في ربيع ١٩٤٨ (وقد روى تفصيلات ذلك الاتفاق الجنرال غلوب في كتابه جندي مع العرب).

ويبدو ذلك واضحاً كذلك من مجرى الحرب العربية ـ الإسرائيلية ومن سلوك الجيوش العربية خلالها، قبل الهدنة الأولى وبعدها. وسوف نرى ـ خلال حديثنا عن دور العرب ومسؤوليتهم ـ كيف أحجمت هذه الجيوش العربية عن التقدم حيث كانت تستطيع التقدم، وفاءً منها بالعهد الذي قام بين الدول العربية وبين بريطانيا خاصة، والذي يقضي بعدم التوغل في غير الأراضي المخصّصة للعرب بموجب قرار التقسيم.

ولا حاجة إلى أن نذكر أن بريطانيا كانت في واقع الأمر توجّه أحداث الحرب، بعد أن أصدرت الجامعة العربية ـ بتأثيرها وضغطها ـ

---

(١) يُمكن الرجوع خاصة إلى كتاب غلوب باشا: جندي مع العرب، ترجمة عفيفي حسني الصمدي، بيروت، دار العلم للملايين، وإلى مذكرات عبد الله التل، قائد معركة القدس.

قراراً باختيار القائد الأعلى للجيش الأردني رئيساً لهيئة القيادة العامة للجيوش العربية. ومعنى هذا القرار أن يتولى الجنرال غلوب، البريطاني، قيادة الجيوش العربية وتوجيه المعركة.

وهكذا يبدو واضحاً أن بريطانيا رسمت للقوات العربية حدود عملها، وقصرت مهمتها على الدفاع عن القسم العربي - وفق قرار التقسيم - والمحافظة على الأمن فيه. بل إنها لم تضمن لها في النهاية هذا الهدف المتواضع، حين توسع اليهود في القسم المخصص للعرب وتجاوزوا قرار التقسيم. ويكفي أن نذكر أن رقعة إسرائيل بعد انتهاء الحرب وبعد اتفاقات الهدنة زادت زيادة كبيرة عما أقرّه قرار التقسيم، فبلغت ٢٠,٨٥٠,٠٠٠ دونم أي ما يقرب من ٨٠٪ من مساحة فلسطين، بدلاً من ١٤,٥٠٠,٠٠٠ دونم خصّصها لها قرار التقسيم وتمثل ٥٦٪ من مساحة فلسطين الكلّية. وهكذا ندرك مرة أخرى كيف وفت بريطانيا بتعهدها لليهود، وحقّقت لهم «تكبير رقعة البلاد الفلسطينية التي ستمنح لهم» كما ورد في قرار اللجنة التنفيذية لحزب العمال البريطاني في نيسان/إبريل عام ١٩٤٤، وقد سبقت الإشارة إليه.

٣ - تعاون بريطانيا مع الولايات المتحدة:

ولم تصل بريطانيا إلى أهدافها عن طريق إعلانها الجلاء عن فلسطين على نحو ما ذكرنا فحسب، ولا عن طريق إيكالها الأمر لهيئة الأمم المتحدة فقط، بل حقّقت ذلك خاصةً حين أدخلت الولايات المتحدة طرفاً في القضية وتخلّت لها شيئاً بعد شيء عن دور الريادة والقيادة. وقد تمّ ذلك - كما نعلم - في إطار السباق الأنجلو - أميركي على إرضاء الصهيونية وكسب ودّها. وزاد في خطره أنه جرى في فترة انتخابات الرئاسة الأمريكية لعام ١٩٤٤ وفي جو التنافس بين

المرشحَيْن روزفلت وديوي على تأييد الصهيونية وأطماعها.

وقد سبق أن أشرنا إلى بيان المستر بيفن وزير الخارجية البريطانية في مجلس العموم بتاريخ ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥، وما ورد فيه من إعلان رسمي عن «إدخال الولايات المتحدة طرفاً في القضية وفي أي حل لها». ومما جاء في البيان[1]: «قرّ رأي حكومة جلالته أن تدعو الولايات المتحدة للتعاون معها في تأليف لجنة تحقيق إنكليزية ـ أميركية مشتركة لبحث مسألة يهود أوروبا والقيام باستعراض آخر لمشكلة فلسطين. ويسرّني أن أعلن للمجلس أن حكومة الولايات المتحدة قد لبّت هذه الدعوة».

ويضيف البيان: «وبعد أن تقدم لجنة التحقيق توصياتها، تتداول بريطانيا مع العرب واليهود والولايات المتحدة لاتخاذ التدابير المؤقتة، ثم تُعدّ مشروع الحلّ الدائم وتعرضه على الأمم المتحدة للموافقة عليه».

وقد تألفت بالفعل اللجنة الأنجلو ـ أميركية في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٥، وكان نصفها من الإنكليز ونصفها من الأمريكيين، ومعظمهم من غلاة المؤيدين للصهيونية. وقد كان هدف اللجنة الأساسي ـ كما نعلم ـ إلغاء **الكتاب الأبيض** رسمياً ونهائياً، ومن ثمّ فتح أبواب فلسطين على مصراعيها للهجرة، لتأمين أغلبية يهودية فيها قبل الإقدام على اتخاذ الخطوة النهائية بإعلان دولة إسرائيل. وقد برزت هذه الأهداف جميعها في تقرير اللجنة الذي تمّ وضعه في ٢٠ نيسان (إبريل) ١٩٤٦.

وقد كان من أبرز نتائج هذا التعاون البريطاني مع الولايات المتحدة، ذلك التصريح الثلاثي الشهير الذي طلعت به الدولتان

---

(١) نص البيان مثبت في كتاب الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين (ص ٣٥١ ـ ٣٥٨) المجموعة الأولى.

(ومعهما فرنسا هذه المرة)، بتاريخ ٢٥ أيار (مايو) ١٩٥٠، بعد عام واحد من اتفاقيات الهدنة في رودس. وفي هذا التصريح تثبيتٌ لكيان إسرائيل وحمايةٌ له، وتأكيدٌ على رغبة الدول الثلاث في التعاون على إعادة السلام والاستقرار إلى المنطقة (بعد أن وصلت إسرائيل إلى أهدافها، وبعد أن طُرد العرب من ديارهم)!

كذلك كان من أبرز نتائج هذا الحلف البريطاني ـ الأمريكي الوصول إلى اتفاقيات رودس بين الدول العربية وإسرائيل. ونعلم كيف كرّست هذه الاتفاقيات حدود إسرائيل التي وصلت إليها عند الهدنة الثانية (في ١٥ تموز/ يوليو ١٩٤٨)، بل كيف أدّت إلى ضم أراض جديدة إلى إسرائيل.

هذه بعض الأمثلة على الدور الذي كان لبريطانيا في حرب عام ١٩٤٨. إنها تُبيِّن أن مسؤوليتها عن وقوع الحرب وعن سيرها وعن مصيرها مسؤولية رئيسية، وأنها صاحبة الدور الأساسي في تلك المعركة، توجّهها سراً وعلناً، وتسيّرها من وراء ستار. لقد أرادت تلك الحرب مسرحيةً تحقّق من خلالها أهدافها ووعودها القاطعة للصهيونية. واصطنعت ظروف تلك الحرب وأحداثها، وارتضت ما رافقها من قتل وتدمير وتشريد، ولم يسؤها اندفاع العرب إلى الاستشهاد والتضحية والبلاء الحسن ما دامت واثقة أنها ستجعل منهم الغنائم والأسلاب.

ولا شك أن عوامل أخرى قد ساعدتها على الاضطلاع بهذا الدور، وهذا ما سنتحدث عنه فيما يلي، غير أنها تظلّ في قلب تلك العوامل وفي محور المؤامرة.

ثانياً ـ الولايات المتحدة ودورها

بدأ التدخل العملي للولايات المتحدة في القضية الفلسطينية منذ

عام ١٩٤٣ ، وذلك عندما طُرحت قضية الأوروبيين الذين شرّدتهم الحرب، وكان بينهم ربع مليون يهودي. فقد اقترح ترومان، رئيس الولايات المتحدة آنذاك، إرسال اليهود إلى فلسطين.

ومنذ ذلك الحين حلّ التعاون والتآزر بين بريطانيا والولايات المتحدة في ما يتصل بفلسطين محل التنافس. لاسيما بعد أن تسلّم ترومان رئاسة الولايات المتحدة بعد وفاة روزفلت، وبعد أن تسلّم حزب العمال الحكم في بريطانيا، والرئيس والحزب كما تعلم كانا من أشد المتحمسين للصهيونية ومن طلائع المنادين بتهويد فلسطين.

وفي عام ١٩٤٥ ـ كما سبق أن ذكرنا ـ أعلن المستر بيفن رسمياً أمام مجلس العموم (بتاريخ ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٥) دخول الولايات المتحدة طرفاً في القضية الفلسطينية.

ومنذ ذلك الحين أخذت الولايات المتحدة تلعب دوراً رئيسياً في قضية فلسطين، بل أخذ دورها يطغى شيئاً بعد شيء على دور بريطانيا، لاسيما أن مصالح الصهيونية والمصالح الأمريكية قد التقت منذ ذلك الوقت لقاء عميقاً، أدّى إلى جعل الولايات المتحدة المنافحة الأولى عن اليهود والمنفذة لسياستهم وخططهم.

فلقد نشط الرأسمال الأمريكي في البحث عن قواعد أمينة له في الشرق الأدنى والأوسط، بعد أن تضخّم واشتدّ جشعه للامتداد والسيطرة منذ عام ١٩٣٩ بوجه خاص. والرأسمالية اليهودية كانت ولا تزال تشكّل جناحاً قوياً في الرأسمالية الأمريكية. ومن هنا، وأمام هذه المصالح المتبادلة، وأمام تخوّف الصهيونية من تلكؤ بريطانيا في الاستجابة لمطالبها، اختارت هذه الصهيونية السيد الأمريكي وارتمت في أحضانه ووضعت إمكاناتها في خدمة استعماره الجديد.

وهكذا كان للولايات المتحدة شأنٌ بارزٌ في حرب عام ١٩٤٨ ، وفي ما آلت إليه هذه الحرب من خلق لدولة إسرائيل. وقد تعاونت في

هذا المجال مع بريطانيا خاصةً ومع سائر حلفائها، غير أنها كانت في الواقع الممثِّل الصريح الجريء للأهداف الصهيونية، لا يأخذها فيها وجل أو حياء. وبعد هذا الموقف الأمريكي السافر من قضية فلسطين، أصبحت بريطانيا نفسها أكثر جرأة في تطبيق سياستها، ووجدت في شريكتها دعماً لها ساعدها على أن تسفر عن نواياها حيناً أو على أن تنفّذ هذه النوايا متسترةً وراء حليفتها أحياناً. وبفضل هذا الموقف الأمريكي أيضاً اطمأنت الصهيونية إلى مصيرها واشتدّ ساعدها وأخذت تسلك سلوك الربيب المدلّل، فتمعن فساداً في فلسطين وتُمارس مع العرب سياسة الإرهاب والتقتيل والتشريد، وتضرب بقرارات هيئة الأمم عرض الحائط، وتسرح وتمرح مطمئنة إلى دعم السيد المُطاع في الأوساط الدولية ولدى حلفائه.

وهكذا توحّدت في كيان عضوي واحد القوى الثلاث المتآمرة على فلسطين، الولايات المتحدة وبريطانيا والصهيونية، وأخذت تلعب في أحداث حرب عام ١٩٤٨ دوراً منسقاً متناغماً، يعزف على وتر واحد ويتطلع إلى هدف مشترك متفق عليه.

ومن العسير أن نحيط بأوجه الدور الذي كان للولايات المتحدة خاصةً في حرب عام ١٩٤٨ وفي نتائجها. وحسبنا أن نورد فيما يأتي أهمّ مظاهر ذلك الدور:

١ ـ الولايات المتحدة ونسف «الكتاب الأبيض»:

سبق أن رأينا كيف كان دخول الولايات المتحدة في حلبة الصراع سبباً أساسياً في القضاء النهائي على **الكتاب الأبيض** الذي تبنته بريطانيا بقوة في مرحلة سابقة، والذي رفضه المؤتمر الصهيوني عام ١٩٤٢ رفضاً قاطعاً (في دورته الاستثنائية التي عقدها خلال شهر أيار/ مايو ١٩٤٢) والذي نصّ بوجه خاص على تحديد الهجرة اليهودية إلى

فلسطين. وقد تجلّى موقف الولايات المتحدة هنا من الكتاب الأبيض في التصريح الذي أدلى به الرئيس روزفلت في ١٦ آذار (مارس) ١٩٤٤، والذي جاء فيه: «إن أميركا لم توافق قط على الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩. وإني سعيد لأن أبواب فلسطين مفتوحة اليوم أمام اليهود. وعندما توضع القرارات في المستقبل فسوف يُنصَف أولئك الذين ينشدون وطناً قومياً لليهود»[١].

وعلى أثر هذا التصريح اجتمع مؤتمر الحزب الجمهوري المعارض للرئيس روزفلت (في ٢٧ حزيران/ يونيو ١٩٤٤) وأيد بدوره قرار روزفلت وزاد عليه. فأجاب الحزب الديمقراطي ـ حزب الرئيس روزفلت ـ ببيان أحسن منه وأشدّ إمعاناً في تأييد الاستيطان اليهودي وفي تأييد الهجرة اليهودية غير المحدودة إلى فلسطين.

وعزّز هذا الموقف الأميركي وأكده من جديد، قرار اتخذه الكونغرس الأميركي في اجتماعه التاسع والسبعين بتاريخ ١٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٥. ومما جاء فيه: «حيث إن الكونغرس في اجتماعه السابع والستين يوم ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٢٢ قرر بالإجماع أن الولايات المتحدة الأمريكية تحبّذ إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين. . .، وحيث إن اضطهاد اليهود المجرّد من الرحمة في أوروبا أوضح الحاجة إلى وطن لهم. . .، وحيث إن الرئيس أيّد هذه الحاجة بالسماح لمائة ألف يهودي بالدخول إلى فلسطين. . .، لذلك فإن المجلس. . يقرر بالإجماع أن الاهتمام الذي أبداه الرئيس في حل هذه المشكلة كان في محله، وأن الولايات المتحدة سوف تستعمل مساعيها لدى الدولة المنتدبة لجعل أبواب فلسطين مفتوحة لدخول اليهود بحرية إلى ذلك البلد إلى أقصى قدرته. وسوف تتوافر هناك فرصة كاملة للاستيطان والتنمية، بحيث تكون لليهود الحرية في

---

(١) كتاب الوثائق *Book of Documents* المقدّم من الوكالة اليهودية إلى الأمم المتحدة.

استئناف بناء فلسطين كوطن قومي لليهود، وبالاشتراك مع سائر عناصر السكان،الجعل فلسطين كومنولثاً ديمقراطياً، يكون الجميع فيه، بغض النظر عن الجنس والمذهب، متساوين في الحقوق»[1].

وقد رافق ذلك ـ كما نعلم ـ تشكيل لجنة التحقيق الأنجلو ـ أميركية التي باشرت أعمالها في الرابع من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦ ووضعت توصياتها النهائية في ٢٠ نيسان (إبريل) ١٩٤٦. ويتكوّن تقرير هذه اللجنة من مقدمة وعشر توصيات وبعض الملحقات. وكان واضحاً من التقرير أن هدفه الأساسي إلغاء الكتاب الأبيض وبالتالي فتح أبواب فلسطين للهجرة وتأمين أكثرية يهودية فيها، كخطوة أولى نحو الخطوات التالية المرسومة، المؤدية في النهاية إلى خلق كيان إسرائيل على أوسع نطاق ممكن.

٢ ـ الولايات المتحدة ومشروع التقسيم:

وتجلّى الدعم الأمريكي واضحاً كذلك عند مناقشة مشروع التقسيم من قبل هيئة الأمم المتحدة. ولا حاجة إلى أن نعيد ذكر المناقشات التي جرت في هيئة الأمم ومواقف الدول المختلفة ومناورات الولايات المتحدة خاصة للحصول على أكثرية ثلثي الأصوات المطلوبة لإقرار المشروع. وحسبنا أن نستشهد بذلك الحكم العام الذي أطلقه الكاتب الأمريكي ميلر بوروز على موقف دولته من هذا المشروع حيث قال[2]: «. . . ومسؤولية إقرار مشروع التقسيم من جانب هيئة الأمم المتحدة إنما تقع على حكومتنا الأمريكية. فالواقع أن التصويت على التقسيم إنما فُرض من جانب حكومتنا فرضاً، بعد أن التجأت هذه الحكومة من غير خجل إلى اصطناع أساليب التهديد

(١) نقلاً عن كتاب الوثائق، المذكور سابقاً.

(٢) في كتابه إسرائيل جريمتنا، الترجمة العربية، بيروت، دار العلم للملايين.

السياسي التي أكل الدهر عليها وشرب. ولم تكد الجمعية تقرّ هذا المشروع حتى رحّب به الصهيونيون كنصر معنوي كبير. ولكنه في الواقع كان نصراً غير أخلاقي. لقد كان برهاناً مخجلاً على أن أساليب التهويل والضغط الدبلوماسي غير المتحفظة وغير الأخلاقية تستطيع أن تسيطر على مؤسسة أنشئت لغرض نبيل، هو تحقيق العدالة الدولية. ولقد كان ضربة مفجعة لثقة العالم بالأمم المتحدة وبالولايات المتحدة الأمريكية..».

وهكذا أدّى موقف الولايات المتحدة إلى إقرار مشروع التقسيم في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ بأكثرية ٣٣ صوتاً ومعارضة ١٣ صوتاً وامتناع عشرة أصوات.

وقد سارعت بريطانيا إلى تأييد القرار، رغم تأكيداتها السابقة بأنها لن تشترك في تقرير أو تنفيذ أي حل لا يرضى عنه العرب واليهود على حد سواء. وأعلن مندوبها عزمه على تقديم كل المساعدات الممكنة لتطبيقه. وقد سبق أن رأينا كيف برّت بوعودها وكيف نفّذت عن طريق حرب عام ١٩٤٨ ما تجاوز هذا المشروع.

وإذا كانت الولايات المتحدة صاحبة القدح المعلّى في إقرار مشروع التقسيم هذا، فمعنى ذلك أنها المفجّرة الفعلية - بسبب هذا المشروع - لحرب عام ١٩٤٨ والمسؤولة بالتالي عن فواجعها ونتائجها. وكُلنا يعلم أن قرار التقسيم كان بداية كفاح عربي مرير من أجل إحباطه؛ كان في البداية كفاحاً شعبياً، ثم ما لبث أن أصبح كفاحاً رسمياً تبنته الجامعة العربية والدول العربية والجيوش العربية أخيراً، وكان حصاده الحرب وشرورها وذيولها الأليمة.

ورغم أن مجلس الأمن كان قد اتخذ قراراً في شهر آذار (مارس) ١٩٤٨ يقضي بالرجوع مؤقتاً عن التقسيم، تحت ضغط الكفاح الذي قام به العرب بعد إقراره من قبل هيئة الأمم، فإن السياسة الأمريكية

والسياسة البريطانية قد استعانتا به في الواقع وتصرفتا على أساسه قبل حرب عام ١٩٤٨ وأثناءها، وجعلتا منه منطلقاً للحصول على مكاسب أوسع منه.

٣ ـ اعتراف الولايات المتحدة بقيام دولة إسرائيل:

عندما غادر المندوب البريطاني ميناء حيفا في منتصف ليل ١٥ أيار (مايو) عام ١٩٤٨، معلناً نهاية الانتداب البريطاني (قبل الموعد المحدد تيسيراً لمهمة اليهود كما سبق أن ذكرنا)، أعلن اليهود فوراً قيام دولة إسرائيل.

وبعد إحدى عشرة دقيقة من إعلان قيامها اعترفت الولايات المتحدة رسمياً بها. وكان الرئيس الأمريكي قد اختلى في اليوم السابق (في ١٤ أيار/ مايو) بمستشاريه وبحث معهم الموقف، لاسيما من زاوية تأييد اليهود الأمريكيين له وللحزب الديمقراطي في الانتخابات المقبلة. واستدعى ظهر ذلك اليوم ممثل الوكالة اليهودية في واشنطن وأبلغه أن حكومة الولايات المتحدة قررت الاعتراف بدولته فور إعلانها.

ولم يكن هذا الاعتراف مفاجأة للصهيونيين، إذ كانوا على يقين من صدوره مسبقاً، وبنوا تصرفاتهم من قبلُ على أساسه. فقد صرح زعيمهم وايزمن قبل أيام قلائل بقوله: «لقد تمكنتُ من توطيد علاقتنا بأصدقائنا في واشنطن، وتأكدت أنه سيتم الاعتراف بالدولة اليهودية في اللحظة التي يُعلن فيها عن قيامها».

وبالإضافة إلى هذا الدور الذي لعبته الولايات المتحدة في الاعتراف بدولة إسرائيل، كان لها دور هام في قبول إسرائيل في هيئة الأمم. فقد تمّ هذا القبول (بتاريخ ١٢ أيار/ مايو ١٩٤٩) بفضل ضغطها أولاً وتأييد بريطانيا وفرنسا ثانياً، وبفضل وقوف الاتحاد

السوفياتي نفسه إلى جانب قرار القبول هذا.

وهكذا نرى أن الولايات المتحدة ـ على الرغم من ابتعادها الظاهري عن مسرح الأحداث في فلسطين ـ كانت وراء الخطوات الأساسية والحاسمة التي مكّنت لليهود وساعدت على خلق دولتهم. ولا يقف دورها، في الواقع، عند ما ذكرنا من أمثلة، بل يتسلل إلى سائر أحداث حرب عام ١٩٤٨، ويُداخل معظم ما حيك خلالها من مؤامرات بين الدول الكبرى، ويكمن خلف معظم قرارات هيئة الأمم المتحدة ولجان التوفيق وسواها من الجهود الدولية. ذلك أن السياسة الصهيونية ارتبطت منذ السنوات السابقة للحرب ارتباطاً عضوياً بالسياسة الأمريكية، وأخذت اللحمة بينهما تشتدّ وتقوى يوماً بعد يوم، وأخذ دور بريطانيا وسواها من الدول الكبرى يتقلّص أمام درر هذا الاستعمار الجديد الناشط.

ثالثاً ـ الصهيونية ودورها

من تحصيل الحاصل أن نقول إن حرب عام ١٩٤٨ ـ شأن سائر الأحداث التي شهدتها فلسطين ـ جزءٌ من المخطط الصهيوني الذي توضّحت معالمه منذ أن نشر تيودور هرتزل أفكاره الصهيونية في كتابه **الدولة اليهودية**، ومنذ أن عُقد أول مؤتمر صهيوني عالمي برئاسته ما بين ٢٩ و٣١ آب (أغسطس) عام ١٨٩٧ في مدينة بال بسويسرا.

وقد لبس هذا المخطط الصهيوني ـ كما نعلم ـ لبوس الظروف الدولية المختلفة، فكان مُضمراً حيناً، صريحاً حيناً آخر، وتعاون تبعاً للظروف مع هذه الدولة الكبرى أو تلك. ولكنه كان دائماً يسعى وراء أهدافه الأصلية، يستغلّ من أجلها حليفاته دون أن يقنع بحدود الدعم الذي تقدمه، بل يتجاوزه دوماً ويطلب المزيد منه. وهكذا لم تكن

الصهيونية تطمئن إلى وعود الدول الكبرى وتأييدها فحسب - رغم قوة تلك الوعود وتعاظم ذلك التأييد - بل كانت تضم إلى ذلك العون جهودها الذاتية وأساليبها الخاصة.

وفي حرب عام ١٩٤٨ وما قبلها وما بعدها لعبت هذه الأساليب الصهيونية الخاصة دوراً بارزاً تضافر مع دور الاستعمار البريطاني والأمريكي وقوّاه كما تقوّى به واشتدّ.

وكانت أبرز معالم ذلك الدور الصهيوني الخاص اعتماده على تنظيماته الإرهابية واتخاذه العنف وسيلة أولى وأساسية لتحقيق مطلب المطالب عنده، نعني به طرد العرب من ديارهم، واستلام فلسطين خلوة من أبنائها.

كذلك من أساليبه البارزة اللجوء إلى خداع العرب، ولاسيما في مجال القرارات الدولية التي يتم اتخاذها، واعتباره هذه القرارات - وإن جاءت إلى جانبه - خطوة يقبلها أو يرفضها ليتجاوزها في الحالين.

ومن العسير أن نحيط بشتى مظاهر الدور الصهيوني في حرب عام ١٩٤٨. وحسبنا بعض الجوانب الأساسية:

١ - «تنظيف» الأرض الفلسطينية قبل انسحاب الإنكليز:

بعد أن اتخذ الإنكليز قرارهم بالجلاء عن فلسطين، تيسيراً لمهمة اليهود وتواطؤاً معهم، استغل اليهود هذه الفرصة ووضعوا نصب أعينهم «تنظيف» الأرض الفلسطينية وطرد مالكيها وسكّانها قبل انسحاب الإنكليز (في ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨) أي خلال شهري نيسان وأيار (إبريل ومايو) من عام ١٩٤٨. ولم يكتفوا بما يسرّه لهم الإنكليز من انسحاب من المناطق اليهودية ومن تضييق على المناطق العربية ومن تسليم العتاد والتحصينات لهم، بل قرروا أن يجاوزوا ذلك كله

إلى وضع العالم أمام الأمر الواقع، عن طريق احتلال أجزاء متتالية من فلسطين وطرد أهلها منها. وقد فعلوا ذلك خاصةً حين تراجع مجلس الأمن عن قرار التقسيم مؤقتاً كما سبق أن ذكرنا. فلقد قبل اليهود هذه الفرصة ليعتبروا هذا التراجع وكأنه دعوة لهم إلى تنفيذ قرار التقسيم بالقوة وإلى تجاوزه إلى أبعد منه.

وقد توسّلوا لهذه الغاية باللجوء إلى الأعمال الهمجية والوحشية ضد العرب لإرهابهم وإخراجهم من ديارهم. وقد ساعدهم على مهمتهم هذه أمران:

أولهما سكوت بريطانيا عن أعمالهم هذه في مقابل منع العرب من القيام بأي نشاط دفاعي ومنع الدول العربية من إرسال قوات نظامية ولو لإنقاذ القسم الذي قررت الأمم المتحدة ـ في قرار التقسيم ـ بقاءه عربياً؛

وثانيهما أن اليهود كانوا قد تدربوا على القتال منذ أمد: تدربوا عليه في الفرقة اليهودية التي اشتركت مع الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وفي قواتهم العسكرية الضاربة المعروفة باسم «البالماخ» وقواتهم العسكرية المعروفة باسم «الهاغناه» وفي منظماتهم الإرهابية مثل «أرغون زفاي ليومي» و«شترن»[١].

ومن الصعب أن نحصي جميع العمليات الإرهابية التي قام بها الصهيونيون إنفاذاً لهدفهم، خلال الفترة الواقعة بين نيسان (إبريل) وأيار (مايو) ١٩٤٨. ونكتفي بذكر العمليات التالية:

أ) في مطلع نيسان شنّ اليهود هجوماً يستهدف فتح ممر بين تل أبيب والقدس، وشطر الدولة العربية التي اقترحها قرار التقسيم شطرين. وقد قاوم العرب هذا الهجوم بضراوة وانتهت معركة القسطل

(١) قدّر عدد جنود «الهاغناه» آنذاك بنحو ثمانين ألفاً، وعدد منظمة «أرغون زفاي ليومي» بنحو عشرة آلاف مقاتل.

هذه بخسارتهم هذا الموقع الهام. غير أنهم استطاعوا الاحتفاظ بمنطقة اللطرون التي لا تقلّ أهمية عن القسطل.

ب) بعد احتلال القسطل نفّذ الصهيونيون خطة عرفت باسم «خطة هاريل»، وهي تستهدف إخراج سكان قرى اللطرون عن طريق سلسلة من الأعمال الإرهابية التي تشيع الذعر في المنطقة. وكانت مذبحة دير ياسين المعروفة (٩ نيسان/ إبريل ١٩٤٨) جزءاً من الخطة المذكورة: فلقد هاجمت ليلاً هذه القرية الصغيرة المسالمة المجاورة للقدس مجموعتان إرهابيتان تابعتان لمنظمتي «أرغون» و«شترن»، وقتلتا كل من كان فيها من العرب (٢٥٠ عربياً معظمهم من النساء والأولاد والشيوخ). وقد أعمل الصهيونيون، في تلك المذبحة البربرية، في سكان القرية القتل والتشنيع والتمثيل: فبقروا بطون الحبالى، وذبحوا الأطفال في أحضان أمهاتهم، ثم ألقوا بالجثث في بئر القرية.

ولقد قيل الكثير في هذه المذبحة الوحشية التي استهدف اليهود من ورائها إرهاب العرب في المناطق الأخرى وحملهم على ترك ديارهم. ومما قاله فيها اليهودي الصهيوني البريطاني جون كيمشي في كتابه **الأعمدة السبعة المنهارة**[(١)] : «. . . لقد كانت مذبحة دير ياسين نقطة سوداء في سجل التاريخ اليهودي خلال سني القتال كلها. ومما يبرّر ذلك أنها أدت إلى هرب من تبقى من الحرب في منطقة الدولة اليهودية بسبب ما انتابهم من فزع، ومن ثم قلّت الخسائر في الجانب اليهودي». وقد وصفها المؤرخ الشهير توينبي Toynbee بأنها «جريمة شبيهة بجرائم النازية ضد اليهود».

أما الصهيونيون فقد اعتبروها وسيلة مثلى ضرورية لطرد العرب

---

(١) J. Kimche: *The Seven Fallen Pillars*, New York, F.A. Preager, 1953, pp. 227 - 228.

وتحقيق أهدافهم. ومما قاله عنها مناحيم بيغن، قائد تلك المذبحة: «إن تلك المذبحة ليست مبررة فحسب، بل لولاها لما قامت دولة إسرائيل»[1].

ج) نفّذ الصهيونيون في ٢١ نيسان (إبريل) ١٩٤٨ «خطة مسباريان» التي تقضي باحتلال مدينة حيفا وطرد العرب منها. وقد نجحت الخطة وخرج من المدينة ذات الأكثرية العربية ثمانون ألف عربي خلال بضع ساعات.

د) في ٢٧ نيسان (إبريل) نفّذ الصهيونيون «عملية شايتز» التي تقضي بنسف القرى العربية المحيطة بيافا، وهي قرى نصّ قرار التقسيم على إلحاقها بالقسم العربي. وقد غادرها نتيجة لذلك مائة ألف عربي خلال ثلاثين ساعة (إذ أدرك أبناء يافا أن نسف القرى يستهدف عزل مدينتهم).

هـ) في اليوم نفسه بدأ الصهيونيون تنفيذ «عملية يوسي» التي تستهدف احتلال القرى العربية التي تشرف شمالاً على طريق رام الله - القدس، وشرقاً على طريق بيت لحم - القدس، وذلك تمهيداً للانقضاض على القدس نفسها. وقد أخفقت العملية، إلاّ أن الإرهاب الصهيوني حمل العديد من الفلاحين على هجر قراهم.

و) نفّذ الصهيونيون «عملية يفتاح» القاضية بتنظيف الجليل الشرقي من سكانه.

ز) وفي ٢ أيار (مايو) نجح الصهيونيون في تنفيذ خطة تقضي باحتلال القرى الواقعة بين طبريا والجليل الشرقي. وقد أخلى عشرون ألف عربي المنطقة قبل وصول أعدائهم، ولجأوا إلى القرى السورية المجاورة.

---

(١) Menacheam Begin, *The Revolt: Story of the Irgun*, New York, Henry Schuman, 1951.

ح) في ١١ أيار (مايو) نجح الصهيونيون في تنفيذ «عملية جدعون»، فاحتلوا بيسان وأبعدوا منها البدو.

ط) في ١٤ أيار (مايو) شن الصهيونيون سلسلة هجمات تستهدف احتلال عكا وإخراج العرب من الجليل الغربي ومن القدس الجديدة. وقد سارع ستون ألف عربي من سكان القدس الجديدة إلى مغادرتها متجهين نحو الأردن.

هذه بعض الأعمال الإرهابية التي قام بها اليهود إنفاذاً لخطتهم القاضية بطرد العرب من فلسطين. ولم نشر بين هذه الأعمال إلى الأعمال العديدة الأخرى التي ارتكبت قبل نيسان (إبريل) ثم بدءاً من ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ بوجه خاص.

وقد عبّر عن الخطة الصهيونية هذه الميجر إدغار أوبالانس فقال: «لقد كانت سياسة اليهود دفع العرب إلى ترك ديارهم، وقد استخدموا لهذه الغاية وسائل نفسية عديدة»[١].

٢ ـ سياسة اليهود بعد الهدنة الأولى:

بعد بدء الحرب العربية ـ الإسرائيلية في أيار (مايو) ١٩٤٨، وبعد أن حقق العرب صموداً وانتصاراً، أصدر مجلس الأمن قراراً بوقف القتال وافقت عليه إسرائيل، ووافق عليه العرب تحت الضغط والتهديد، بتاريخ ٢ حزيران (يونيو) ١٩٤٨، وتوقف القتال فعلاً في ١٧ منه لمدة أربعة أسابيع.

ورغم تعهدات مجلس الأمن ودوله الكبرى بحظر إرسال الأسلحة والمتطوعين إلى أي من الطرفين خلال فترة الهدنة، اغتنمت الصهيونية هذه الفرصة لتقوية إمكاناتها وللإعداد لجولة جديدة تكون فيها أكثر قوة وعتاداً. فبادرت العصابات الصهيونية العالمية إلى جلب

(١) Edgar O'Ballance, *The Arab-Israeli War*, 1948, p. 64.

المتطوعين وإدخال الأسلحة الثقيلة والخفيفة والطائرات من دول الغرب والشرق (ولاسيما تشيكوسلوفاكيا) إلى فلسطين، مستخدمةً ميناء حيفا الذي سارعت بريطانيا إلى إخلائه لليهود في شهر نيسان (إبريل) ١٩٤٨. وهكذا لم تنته فترة الهدنة إلا وكان لدى اليهود «جيش يهودي متماسك يملك قوة جوية خفيفة ولكنها فعّالة، كما يملك أسطولاً بحرياً صغيراً وجريئاً» على حد قول جون كيمشي في كتابه المذكور سابقاً.[١]

وقد عبّر عن هذه الحقيقة بن غوريون في بيانه الذي ألقاه آنذاك لتبرير قبول حكومته لوقف إطلاق النار، فقال: «.. خلال فترة وقف إطلاق النار سوف ننظّم شؤوننا الإدارية تنظيماً فعّالاً، وسوف نثبّت مواقعنا في المدن والقرى، وسوف نسرّع في هجرة اليهود إلى فلسطين واستيطانهم، وسوف نُعنى بالجيش»[٢].

وبالفعل، سخِر اليهود من شروط الهدنة (في حين تقيّد بها العرب) وجعلوا منها فرصة الدهر للتمكين لدولتهم، واستغلّوا كل دقيقة في جلب السلاح والطيارين والمحاربين، وظلوا يخرقون خطوط الهدنة في مختلف الجبهات من أجل تحسين مواقعهم، وتمكّنوا من تموين مستعمراتهم المنعزلة وأحيائهم في القدس الجديدة، بل أنشأوا طريقاً جديدة بين القدس ويافا.

٣ ـ سياسة اليهود بعد الهدنة الثانية:

بعد استئناف القتال في ٩ تموز (يوليو) ١٩٤٨، قامت الهدنة الثانية ـ كما نعلم ـ بتاريخ ١٩ تموز (يوليو) ووافق العرب على قرار

---

(١) J. Kimche, *The Seven Fallen Pillars*, op. cit., pp. 249 - 250.

(٢) Ben Gurion, *Rebirth and Destiny of Israel*, New York, The Philosophical Library, 1954, p. 296.

مجلس الأمن الذي يقضي بوقف القتال.

وههنا أيضاً، نكث اليهود بعهدهم ولم يحترموا اتفاق الهدنة، بل جعلوا منه فرصة تفوق فرصة الهدنة الأولى فيما حققته لهم من مكاسب. وقد لجأوا هذه المرة إلى خرق الهدنة بشكل مفضوح وإلى شنّ اعتداءات غادرة على مواقع العرب وإلى تشريد عدد جديد من السكان.

ومن الأمثلة على اعتداءاتهم بعد هذه الهدنة الثانية هجومهم على الجبهة المصرية بتاريخ ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨ واحتلالهم مدينة بئر السبع في ٢١ منه، وبيت حنون في ٢٢ منه، ثم بيت جبرين بعد ذلك. ونتيجة لخرق اليهود لاتفاق وقف إطلاق النار، تجدّدت المعارك الجانبية بين العرب واليهود، وحشد اليهود حوالى ١٥ ألف مقاتل في النقب، واستدرجوا القوات المصرية وحاصروها في الفالوجة. وعندما طلب مجلس الأمن من جديد بتاريخ ٢٢ تشرين الأول (أكتوبر) وقف إطلاق النار، لم تتقيّد إسرائيل أيضاً بالقرار، وتابع إيغال آلون قصف الحامية المصرية في الفالوجة. وفي الوقت نفسه قامت قوات كبرى بتنفيذ «عملية حيرام»، وتمكّنت من احتلال الجليل الأعلى والتوغل في لبنان حتى نهر الليطاني مما أدّى إلى تدفق عشرة آلاف لاجىء جديد على المدن اللبنانية.

ولا ننسَ أن اليهود لجأوا خلال هذه الفترة إلى اغتيال الكونت برنادوت، وسيط هيئة الأمم، في ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٨ مع مرافقه الفرنسي الكولونيل سيرو، وذلك بعد أن انتقد تصرفاتهم ووصفها بـ «النهب والسلب والسرقة وتدمير القرى دون مبرر عسكري واضح»، وبعد أن تقدّم بمشروع تقسيم جديد لم يرضَ عنه اليهود.

وهكذا حين وقّعت إسرائيل مع العرب اتفاقيات الهدنة الدائمة (في رودس)، كانت اعتداءاتها المتكررة وخرقها لاتفاقيات الهدنة قد

أكسبتها أراضي شاسعة من القسم الذي قررت الأمم المتحدة بقاءه عربياً، ومكّنتها من طرد السكان العرب من ديارهم. وقد سبق أن ذكرنا أن إسرائيل أصبحت تسيطر بموجب اتفاقيات الهدنة النهائية (في رودس) على ٨٠٪ من مساحات فلسطين (٢٠,٨٥٠,٠٠٠ دونم) بدلاً من ٥٦٪ من مساحتها (١٤,٥٠٠,٠٠٠ دونم) هي التي خصّصها لها قرار التقسيم.

٤ ـ إسرائيل بعد اتفاقيات الهدنة النهائية:

على الرغم من المكاسب الكبرى التي حقّقتها اتفاقيات الهدنة الدائمة في رودس[١] لإسرائيل، فقد ظلت عازمة على الاستمرار في الاعتداء والتوسّع.

ففي ١٠ آذار (مارس) ١٩٤٩، أي بعد ١٣ يوماً من توقيع الهدنة مع مصر، تابعت القوات الإسرائيلية اعتداءاتها على القوات المصرية في جنوبي النقب، واحتلّت النقب الجنوبي حتى وصلت إلى خليج العقبة، واحتلّت قرية أم الرشراش العربية وطردت أهلها وأخذت ممتلكاتهم. وفي ذلك المكان أنشأت إسرائيل ميناء ايلات في أرض عربية وأشرفت على خليج العقبة والبحر الأحمر.

وقد نصّت اتفاقيات الهدنة مع مصر وسورية على إقامة أربعة قطاعات مجرّدة من السلاح، ثلاثة منها على الحدود السورية، والرابع في العوجا على حدود سيناء المصرية. كما نصّت الاتفاقية مع الأردن على إقامة منطقة حرام في جبل المكبّر وفي القدس وقرب اللطرون. غير أن همّ حكومة إسرائيل كان التوسع في هذه المناطق والقطاعات،

(١) تم توقيع اتفاقيات الهدنة بين إسرائيل ومصر في ٢٤ شباط (فبراير)، وبين إسرائيل ولبنان في ٢٣ آذار (مارس)، وبين إسرائيل والأردن في ٣ نيسان (إبريل)،. وبين إسرائيل وسورية في ٢٠ تموز (يوليو)، من عام ١٩٤٩.

فقامت بالاستيلاء على أكثرها والتصرّف فيها. وكان عملها هذا سبباً للقتال مرات عديدة مع القوات السورية ثم مع الأردنية ثم مع المصرية في تواريخ متعددة.

ولم تكتفِ إسرائيل بأن ضمّت إليها مناطق مجرّدة من السلاح ومناطق حراماً أراضيها ملكٌ للعرب، خلافاً لشروط الهدنة وقرارات مجلس الأمن، بل أخذت تجتاز خطوط الهدنة على الحدود السورية والأردنية والمصرية وتقتل الكثير من السكان وتهدّم البيوت، وذلك لإرهاب الأهلين وحملهم على الرحيل.

وقد استمرت هذه الاعتداءات ـ كما نعلم ـ حتى حرب ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧، وأخذت شكلاً أوسع بعدها، مما سيأتي تفصيله فيما بعد.

وهكذا نرى أن الصهيونية كانت صاحبة دور خاص في حرب عام ١٩٤٨ أضيف إلى دور بريطانيا والولايات المتحدة، وزاد عليه، وأدّى إلى تحقيق مرحلة هامة من المخطط الصهيوني، تجلّت في قيام دولة إسرائيل على ما يجاوز ٨٠٪ من الأرض الفلسطينية، وفي تشريد العدد الأكبر من أبناء فلسطين، وفي فرض اتفاقات الهدنة على الدول العربية وإرغامها على القبول بالأمر الواقع.

رابعاً ـ دور هيئة الأمم المتحدة

كان معظم الدور الذي لعبته هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن التابع لها، بمثابة تغطية لدور أمريكا وبريطانيا. يُضاف إلى ذلك ما لجأت إليه الصهيونية العالمية ـ مدعومة دوماً من أمريكا وبريطانيا ـ من مناورات دولية من أجل الحصول على القرارات الملائمة من قبل هيئة الأمم ومجلس الأمن، تلك القرارات التي كانت تنطلق منها لتتجاوزها

وتخطو خطوات أوسع منها، وكثيراً ما كانت تخالف تلك القرارات ولا تكترث بها، مطمئنة إلى موقف أمريكا وبريطانيا. ولم تكن تلك القرارات تُلزم في الواقع سوى الدول العربية التي كانت تتقيّد بها، مفسحةً بذلك لإسرائيل مجال تنفيذها لصالحها وعلى نحو ما يحلو لها.

وفي الجملة استطاعت قرارات هيئة الأمم ومجلس الأمن ـ كما سنرى ـ أن تلجم الدول العربية وأن تعطّل نضالها وانتصاراتها، ولم تقوَ على لجم إسرائيل، بل يسّرت لها أغراضها في معظم الأحيان. وكانت إسرائيل حرّة في أن تقبل تلك القرارات أو ترفضها أو تتجاوزها تبعاً لما تستلزمه خطتها هي، دون أن يؤدي موقفها في أي حال من الأحوال إلى استنكار هيئة الأمم ومجلس الأمن أو إلى تطبيق عقوبات عليها.

وفي ما يلي بعض الأمثلة على دور هيئة الأمم ومجلس الأمن في ترجيح كفة الحرب أثناء معركة ١٩٤٨ لصالح إسرائيل، وفي تمكينها من إقامة دولة إسرائيل:

١ ـ مجلس الأمن والهدنة الأولى:

بعد أن دخلت الجيوش العربية فلسطين، كان الموقف في البداية لصالح الدول العربية، التي كادت جيوشها، في أواخر أيار (مايو) ١٩٤٨، تحدق بتل أبيب فاصلة جنوبها عن شمالها قرب ناتانيا. وكانت الكتائب المصرية قد سيطرت على غزة وبئر السبع، كما سارت الكتائب العراقية في اتجاهين أحدهما نحو نابلس فطولكرم فقلقيلية (حتى مشارف مستعمرة ناتانيا)، وثانيهما في اتجاه مرج ابن عامر على مشارف مستعمرة العفّولة. وكانت الكتائب السورية قد احتلت سمخ واتجهت للسيطرة على جسر بنات يعقوب، والكتائب اللبنانية احتلت الناقورة وقرية المالكية وأخذت تهيمن على معابر الجليل الغربي، والكتائب الأردنية احتلت أريحا والقدس وسيطرت على طريق القدس ـ

الرملة، كما عسكرت إحدى قواتها حول اللد والرملة. وكان المجاهدون الفلسطينيون يبلون بلاء عظيماً ويُساندون الجيوش العربية الزاحفة.

في أوج هذه الانتصارات وجّه مجلس الأمن ـ بتحريض من الدول الكبرى ـ نداء بوقف القتال بدءاً من ٢٢ أيار (مايو) ١٩٤٨. وقد وافق اليهود على ذلك دون قيد أو شرط ـ لأنه كان مطلباً لهم ـ في حين استنكره العرب وأُجبروا على وقف القتال في الساعة السادسة من صبيحة يوم الجمعة في ١١ حزيران (يونيو) ١٩٤٨ لمدة أربعة أسابيع.

وقد سبق أن رأينا كيف أن اليهود كانوا حريصين على هذه الهدنة وكيف أفادوا منها لجلب السلاح والمهاجرين والطيارين المحترفين، وكيف قاموا خلالها بخرق خطوط الهدنة في كثير من الجبهات ـ دون أن يتحرك مجلس الأمن ـ وكيف استولوا خلالها على ميناء حيفا بعد أن أخلاه الإنكليز.

وهكذا حقّق مجلس الأمن لليهود ـ بفضل قرار وقف إطلاق النار ـ مطلباً غالياً، ومكّنهم من إعادة تنظيم أنفسهم وبناء قواهم، في حين مُنع السلاح عن العرب منعاً قاطعاً.

٢ ـ مجلس الأمن والهدنة الثانية:

بعد استئناف القتال في ٩ تموز (يوليو) ١٩٤٨، وبعد أن مال الموقف لصالح اليهود (نتيجة للاستعدادات التي قاموا بها خلال فترة الهدنة الأولى)، وبعد أن استولى اليهود على العديد من المدن والقرى، وأصبحوا في مركز حربي ممتاز، قرّر مجلس الأمن مرة ثانية وقف إطلاق النار، وحدّد لذلك موعداً هو يوم الإثنين في ١٩ تموز (يوليو) ١٩٤٨. وقد اضطرت الدول العربية إلى قبول هذا القرار تحت ضغط الدول الكبرى ومجلس الأمن. وتقيّدت الدول العربية بوقف

إطلاق النار بينما كان تقيد اليهود شكلياً، فقد استمروا في خرق خطوط الهدنة وفي الاستيلاء على مواقع جديدة، دون أن يأبه مجلس الأمن لذلك. بل بلغ بهم الأمر حد اغتيال الوسيط الدولي الكونت برنادوت ومرافقه الفرنسي، بعد أن أرسل إلى الجمعية العمومية للأمم المتحدة توصياته واقتراحاته التي لم ترق لليهود. ولم تستنكر هيئة الأمم هذا التحدي وسكتت عليه.

وعندما عُقدت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة، اغتنم اليهود هذه الفرصة وأرادوا أن يضعوها أمام الأمر الواقع ووسّعوا عملياتهم الحربية. فراحوا يشنّون الهجمات في النقب منذ ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٨ على الخطوط المصرية، وتمكّنوا من احتلال النقب كما تمكّنوا من تصفية الجيوب الفلسطينية في الشمال واحتلال خمس عشرة قرية لبنانية ظلت في أيديهم حتى عقد الهدنة الدائمة بينهم وبين لبنان. ورغم ذلك كله، لم تحرّك هيئة الأمم المتحدة أو مجلس الأمن ساكناً.

٣ ـ مجلس الأمن والهدنة الدائمة:

في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨ أصدر مجلس الأمن قراراً دعا فيه الفريقين المتحاربين للتفاوض من أجل إقرار هدنة دائمة. وكان واضحاً أن هذا القرار يعني تكريس حدود إسرائيل على نحو ما انتهت إليه بعد الحرب، وبعد أن تجاوزت إسرائيل أكثر من مرة مواقعها وخرقت الهدنة للحصول على مكاسب جديدة.

وقد اضطرت الدول العربية إلى القبول بهذا القرار، ووقّعت كل من مصر ولبنان والأردن وسورية اتفاقيات الهدنة في رودس. وبذلك أكمل مجلس الأمن الفاجعة وتوّجها، ورسّخ قواعد إسرائيل، وفرض على الدول العربية الأمر الواقع، بدلاً من إعادة بحث المسألة من جذورها.

واستطاعت إسرائيل فوق ذلك أن تنتزع الاعتراف بها من هيئة الأمم المتحدة كما رأينا، وتمّ قبولها عضواً فيها منذ ١١ أيار (مايو) ١٩٤٩، بفضل مناورات الولايات المتحدة الأمريكية والدول الكبرى.

٤ ـ هيئة الأمم المتحدة ومشروع التقسيم:

والواقع أن دور هيئة الأمم المتحدة في حرب ١٩٤٨ قد بدأ قبل الحرب، منذ أن أقرّت هذه الهيئة مشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، مساء ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، تحت ضغط الولايات المتحدة ووعدها ووعيدها.

ولم يكن عملها هذا دخولاً في لعبة الصهيونية والاستعمار فحسب، بل كان مخالفة واضحة لدستورها وللأغراض الأساسية التي أُنشئت من أجلها، نعني حفظ حق جميع الشعوب، كبيرها وصغيرها، في تقرير مصيرها. ولا حاجة إلى القول إن هيئة الأمم المتحدة لا تملك، بحكم صلاحياتها، أن تقرر تقسيم دولة قائمة إلى دولتين.

وعندما عارض العرب هذا المشروع وناضلوا وقاتلوا ضدّه، كادت هيئة الأمم، تحت ضغط الوكالة اليهودية، تلجأ إلى تنفيذه بالقوة عن طريق إرسال قوات دولية.

وبعد أن سحبت الولايات المتحدة تأييدها للمشروع، أمام الموقف العربي الصلب، عاد مجلس الأمن فتراجع عن قراره السابق، وكأنه لعبة في يد أمريكا.

غير أن الرجوع عن القرار لم يمنع إسرائيل من تنفيذ هذا القرار فعلاً، بل سمح لها في الواقع بتنفيذه وتجاوزه معاً، كما سبق أن رأينا. ولم تكترث هيئة الأمم ولم يأبه مجلس الأمن لسياسة الأمر الواقع التي فرضها اليهود على مراحل، ولم يستنكرا اعتراف الولايات المتحدة بإسرائيل بعد إعلان قيامها بدقائق ليلة ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨. وكان

هذا التآمر الصامت سبباً أساسياً في تفجير حرب عام ١٩٤٨، حين لم يجد العرب بعده سبيلاً سوى ركوب الأسنّة وانتزاع حقهم بأيديهم.

وهكذا نرى أن هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن أسهما في تفجير حرب عام ١٩٤٨، وأسهما في سيرها لصالح اليهود بعد قرار الهدنة الأولى، وسهّلا لإسرائيل التوسّع نتيجة لقرار الهدنة الثانية، وسكتا عن تجاوزاتها وخرقها للقرارات الدولية، وثبّتا قواعدها وكّرسا الوضع غير الشرعي الذي انتهت إليه بعد الحرب بالخدعة والمناورة والسطو، وذلك حين طلبا إلى العرب توقيع اتفاقات الهدنة، التي لم تكن في الحقيقة سوى اعتراف فعلي بالكيان الإسرائيلي بحدوده الواسعة التي انتهى إليها، وبعد أن استولى على أكثر من ٨٠٪ من الأرض الفلسطينية. وفضلاً عن هذا وذاك سكتت هيئة الأمم عن قضية اللاجئين، ولم تقدّم لها سوى حلول جانبية مخجلة، كما سنرى فيما بعد.

خامساً ـ العرب ومسؤوليتهم

مهما تكن ضخامة الدور الذي قامت به بريطانيا والولايات المتحدة والصهيونية وهيئة الأمم، ومهما يكن الطوق الذي ضربه هذا الحلف الاستعماري الصهيوني قاسياً، فإن مسؤولية العرب والدول العربية تظل قائمة وكبيرة. وليس من الصحيح القول إن الدول العربية ما كان في وسعها أن تفعل أفضل مما فعلت، وسط هذا التآمر الدولي الخطير. ولا يجدي في شيء أن نبرىء هذه الدول وأن نلقي المسؤولية على سواها. فالقضية أولاً وآخراً لا يصونها إلاّ أربابها، ولا تلقى من المجتمع الدولي أكثر مما يفرضه عليه أهلها وذووها. وحين تهون القضية على أصحابها، لا بد أن تكون أهون على أعدائها والغرباء عنها.

والحق أن الدول العربية لم تُحسن التصرف في الهامش المتروك لها، ولم تعرف أن تفيد من طاقاتها وإمكاناتها، بل إنها وقعت في معظم الأحيان في ألاعيب الدول الكبرى والصهيونية ونفّذت إرادتها عن جهل حيناً وعن وعي وتآمر أحياناً. حتى إننا لا نغلو إذا قلنا ـ مع آنيا فرنكوس: «إن حرب ١٩٤٨ كانت سلسلة أخطاء وخيانات»(١).

وقد يمضي بنا التحليل بعيداً إنْ نحن أردنا أن نتوقف عند تفصيلات الأخطاء العربية والخيانات العربية في حرب عام ١٩٤٨. وحسبنا أن نشير إلى أبرزها وأهمّها في كثير من الإيجاز:

١ ـ جامعة الدول العربية وقرار التقسيم:

سبق أن رأينا كيف قابلت الجماهير العربية مشروع قرار التقسيم بالهياج والتظاهر والمصادمات، وكيف سارع عرب فلسطين إلى خوض المعارك مع العصابات الصهيونية المسلحة والمدربة، معتمدين على عون جامعة الدول العربية ودولها.

وفي غمرة ذلك القلق والهياج، عقدت جامعة الدول العربية اجتماعاً في القاهرة بتاريخ ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧ حضره رؤساء وزارات الدول العربية. ولكن ذلك الاجتماع لم يتمخض إلاّ عن نداء أصدره مجلس الجامعة ووجّهه للأمة العربية والرأي العام العالمي. ولم يتخذ المجلس أي إجراء عملي سوى تنفيذ قراراته السابقة المتعلقة بإمداد أهل فلسطين بالسلاح والمال والرجال. وكانت تلك القرارات (ولا سيما قرارات مؤتمر عاليه في ١٥ تشرين أول/ أكتوبر ١٩٤٧) تقضي بتقديم ما لا يقل عن عشرة آلاف بندقية إلى أهل فلسطين. وزاد قرار مجلس الجامعة الجديد على قراراته السابقة تقدير عدد المتطوعين الذين يجب إرسالهم إلى فلسطين بثلاثة آلاف متطوع

(١) آنيا فرنكوس، الفلسطينيون، بيروت، مكتبة أنطوان ودار النهار، ١٩٦٩، ص ٦٥.

تتولى لجنة الجامعة العربية العسكرية توزيعهم على جبهات فلسطين!

وقد اتخذ مجلس الجامعة العربية هذه القرارات الهزيلة رغم أنه درس تقرير لجنته العسكرية التي شكلها في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧، وفيه قدّرت القوات اليهودية المحاربة بستين ألف شخص مدرّب ومسلّح بأحدث الأسلحة، ورغم معرفته بحقيقة قوات جيش «الهاغناه» و«البالماخ» (أو فرقة الصاعقة)، وعصابة «شترن»، وبوليس المستعمرات، وقوى سكان المدن والمستعمرات. وما كان مجلس الجامعة يجهل أيضاً واقع أسلحة اليهود في فلسطين آنذاك وما أورده التقرير البريطاني الرسمي عنها عام ١٩٤٦.

وفوق هذا وذاك لم تكن تلك الأسلحة الهزيلة التي قرّرت الجامعة تقديمها لأبناء فلسطين سوى بنادق قديمة من نماذج مختلفة، ولم تصل إلى اللجنة العسكرية في دمشق لتوزيعها إلا في شهر آذار (مارس) ١٩٤٨[(١)].

ومع ذلك، عندما دخلت فلسطين في أوائل عام ١٩٤٨ ثلاث كتائب من المتطوعين المدرّبين بلغ عدد أفرادها ثلاثة آلاف مسلح (أُطلق عليها اسم «جيش الإنقاذ العربي»)، استطاع هؤلاء المتطوعون، على الرغم من سوء تسليحهم ونقص تدريبهم، أن يوجهوا - بمساعدة شعب فلسطين - ضربات قاصمة إلى القوات اليهودية، وأن يبلوا بلاء حسناً ويُسجّلوا بطولات كبيرة. وهكذا أجبروا اليهود على التراجع في كل مكان وشلّوا حركتهم، مما اضطر مجلس الأمن، إزاء تدهور أوضاع اليهود، إلى إهمال قرار التقسيم.

(١) من أجل مزيد من التفاصيل حول عدد البنادق ونماذجها وعدد طلقاتها وتوزيعها بين الدول العربية، يحسن الرجوع إلى كتاب شفيق الرشيدات، فلسطين: تاريخاً وعبرةً ومصيراً، بيروت، دار النشر المتحدة للتأليف والترجمة، ١٩٦١، ص ٢١٨ - ٢٢٣. كذلك نجد في هذا الكتاب القيّم وصفاً مفصّلاً لموقف الدول العربية في حرب عام ١٩٤٨ (ولا سيما في الفصلين السادس والسابع منه).

هذا ما كان رغم تلك المساعدة الهزيلة التي قدّمتها دول الجامعة العربية. ومن حق المرء أن يتساءل عن مدى النصر الذي كان في وسع أبناء فلسطين وأبناء البلدان العربية أن يحقّقوه لو جاءت مساعدات الدول العربية في المستوى المطلوب، المتناسب مع قوات اليهود المسلحة والمدرّبة والكبيرة.

الدول العربية وقرار دخول الحرب:

بعد تراجع مجلس الأمن الظاهري عن قرار التقسيم، أعلنت بريطانيا ـ كما نعلم ـ عزمها على الانسحاب نهائياً من فلسطين وانسحبت فعلاً (قبل الموعد الأصلي) بتاريخ ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨. وخلال الفترة التي سبقت الانسحاب تركت البلاد ـ كما سبق أن رأينا ـ نهباً للفوضى والاضطراب، ويسَّرت لليهود أمر الاستيلاء على القسم المخصّص لليهود وعلى بعض الأقسام المخصّصة للعرب. وقد كان هدفها من إعلان الانسحاب ـ كما سبق أن قُلنا ـ تنفيذ قرار التقسيم فعلاً، رغم تراجع مجلس الأمن عنه شكلاً.

وكان ما كان من تسليم المعسكرات والمعدات لليهود ومن تهجير العرب من كثير من المناطق. ولقد ساءت أحوال المجاهدين الفلسطينيين وقوات جيش الإنقاذ وسط هذا الجو، لا سيما أن القوات البريطانية ضيّقت الخناق على تسلّحها وتحركاتها.

وههنا ظلت الجامعة العربية صامتة جامدة تكتفي بالتصريحات والاجتماعات. الأمر الذي أدّى إلى نقمة الجماهير العربية وإلى قيام مظاهرات شعبية صاخبة تُطالب دول الجامعة بمعالجة الموقف وتُنادي بتدخل الجيوش النظامية لإنقاذ عرب فلسطين.

وهكذا اضطرت اللجنة السياسية للجامعة العربية، أمام موقف الجماهير الشعبية، إلى إعلان قرارها بتدخل الجيوش العربية بتاريخ ١٢

نيسان (إبريل) ١٩٤٨ ، وحدّدت يوم ١٥ أيار (مايو) موعداً لتحرّك تلك الجيوش.

ولكن الأحداث والوثائق كشفت بعد ذلك عن أن هذا القرار لم يتم إلاّ بعد أن وافقت بريطانيا عليه، وبعد أن قيّدته ـ كما سبق أن رأينا ـ بشرط أفقده معناه، وهو أن يقتصر هدف الجيوش العربية على حماية الأراضي التي خصّ قرار التقسيم العرب بها، وألا تغزو هذه الجيوش بحالٍ من الأحوال الأراضي التي هي من نصيب اليهود. وقد عبَّرت عن ذلك بوضوح المفاوضات التي جرت بين المستر بيڤن، وزير الخارجية البريطانية، وبين توفيق أبو الهدى، رئيس الوزارة الأردنية، في ربيع عام ١٩٤٨[١].

وأحداث الحرب ـ كما نعلم ـ أكدت فيما بعد هذه الحقيقة، حين أحجمت الجيوش العربية، في أكثر من موقع، عن أن تمضي في تقدّمها ـ رغم قدرتها ـ إلى ما يجاوز الحدود المتفق عليها.

وهكذا استخدمت بريطانيا حلفاءها العرب لإتمام مؤامرتها، وجعلتهم يخوضون الحرب ويتحملون ويلاتها غير مجاوزين حدود ما رسمته لهم.

ولا ننسَ أن الذي تولّى رئاسة أركان الجيوش العربية الزاحفة على فلسطين كان غلوب باشا، الجنرال الإنكليزي، الذي كان من الطبيعي أن يقود تلك الحرب وفق الخطة التي أرادها الإنكليز.

وفوق هذا وذاك، رافقت قرار الجامعة العربية القاضي بتدخل الجيوش العربية في معركة فلسطين (لإبطال التقسيم وتحرير فلسطين!) إجراءات فرعية عطّلت قوى الشعب العربي الفلسطيني، ويسّرت بالتالي لهذه الجيوش تسيير المعركة وفق الأهداف المرسومة لها. وأهم تلك

(١) انظر تفاصيل تلك المفاوضات في كتاب شفيق رشيدات، فلسطين، المذكور سابقاً، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

الإجراءات الخطيرة ما يأتي:

أ) اعتبار الجيوش العربية الوسيلة الوحيدة الصالحة لحماية عرب فلسطين وإنقاذ عروبتها.

ب) حلّ جميع المنظمات العسكرية الشعبية في فلسطين وتوقيف نشاطها وإبعادها عن المعركة.

ج) عزل جميع الأحزاب والهيئات السياسية الفلسطينية عن مباشرة قضية فلسطين أو الاشتراك في العمليات العسكرية وترك معالجة القضية كاملة للجامعة العربية والجيوش العربية.

هذا بالإضافة إلى القرار الخاص بوضع خطة عسكرية مشتركة لجميع تحركات الجيوش العربية في فلسطين، وتكوين هيئة قيادة عامة واختيار القائد الأعلى للجيش الأردني (الجنرال غلوب الإنكليزي) رئيساً لهذه الهيئة. أضف إلى ذلك إعلان حالة الطوارىء والأحكام العرفية في البلدان العربية، بحجة حماية الجيوش الزاحفة.

٣ ـ موقف الجيوش العربية في بداية الحرب:

وبعد أن دخلت الجيوش العربية الحرب، تكشّف سلوكها الخاضع للشروط البريطانية المسبقة منذ البداية: فقد تقدّمت تلك الجيوش واحتلت كثيراً من المواقع، وكادت تسيطر على الموقف ـ كما رأينا ـ. وبدا أن من السهل عليها أن تواصل الزحف وتحتل المناطق القليلة المتبقية التي احتلها اليهود أثناء وجود القوات البريطانية. غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث، بل أخذت تلك الجيوش تراوح مكانها وتحجم عن التقدم: فتوقف الجيشان الأردني والعراقي في الأماكن المعيّنة لهما عند حدود المنطقة المخصّصة لليهود ولم يتخطياها، وتوقف الجيش اللبناني الصغير الناشىء، وتوقف الجيش السوري الفتي عند استحكامات «خط إيدن» الذي سلّمه الإنكليز لليهود قبل جلائهم.

ولـم يقف الأمر عند هذا الحد، بل استجابت الدول العربية لنداء حليفاتها، ووافقت على نداء مجلس الأمن (بتاريخ ٢٢ أيار/ مايو ١٩٤٨) القاضي بوقف إطلاق النار، وتوقفت عن القتال فعلاً لمدة أربعة أسابيع في صبيحة السابع من حزيران (يونيو) ١٩٤٨.

وكانت هذه الاستجابة لنداء مجلس الأمن كارثة الكوارث وفضيحة الفضائح. لقد كشفت عن حقيقة أهداف الدول العربية حين دخلت الحرب، وعن عهودها المسبقة لحليفتها بريطانيا. وضيّعت بذلك على الأمة العربية فرصة العمر، وخسرت المعركة نهائياً حين قبلت بتلك الهدنة. وقد سبق أن رأينا كيف أفاد الصهيونيون من فترة الهدنة هذه فأعدّوا العدة لجولة جديدة رجحت فيها كفتهم.

٤ ـ الدول العربية واستئناف القتال:

وحين استأنفت الدول العربية القتال في ٩ تموز (يوليو) ١٩٤٨ ـ بعد فترة الهدنة التي أعدّ خلالها اليهود للحرب عدّتها الكاملة ـ سار القتال في الأيام الأربعة الأولى مع ذلك سيراً رجحت فيه كفة العرب، واستطاعوا أن يزيحوا القوات اليهودية عن نقاط كثيرة استولت عليها أثناء الهدنة، وأن يتقدموا في مواقع عديدة في الشمال والوسط والجنوب. وعاود السلاح الجوي العربي ـ وخاصة المصري ـ غاراته على تل أبيب وغيرها، واشتد الضغط على الأحياء اليهودية في القدس.

ثم ما لبث الموقف أن تغيّر، حين انسحبت القوات الأردنية من حول اللد والرملة، وانسحبت القوات العراقية من رأس العين ومجدل بني فاضل وبعض مناطق مرج ابن عامر. ومن الصعب تفسير هذه الانسحابات، وإن يكن العسكريون قد قدّموا تفسيرات مستندة إلى الاعتبارات العسكرية. وإذا نحن نفينا عن هذا الحادث صفة التآمر،

يظل من الصحيح أنه يكشف على أقل تقدير عن نقاط الضعف والقصور في الجيوش العربية وقيادتها وأسلوب عملها: فلقد استأنفت الجيوش العربية الحرب وليست لها قيادة عامة فعلية ولا خطة عامة. كما أنها لم تكن تملك القدر الكافي من العتاد. وكانت تفتقر إلى اللحمة والانسجام. وهكذا واجه حوالى ٤٠ ألف عربي مفكّكين مشرذمين ثلاثة وسبعين ألف محارب يهودي مجهّزين بأحدث الأسلحة.

وقد بحثت اللجنة السياسية للجامعة العربية فيما بعد أمر توحيد القيادة العسكرية فلم تنتهِ إلى شيء، بسبب موقف الشك والانكماش الذي وقفته مصر خاصة[1] (وقد كان لمصر في أحداث ١٩٤٨ جميعها دور سلبي أساسي).

بل إن الصف العربي قد ازداد تراخياً وانقساماً، بعد نشوء حكومة عموم فلسطين ومؤتمر غزة، وبعد الاختلاف الذي وقع حول ذلك بين مصر والأردن، على نحو ما رأينا من قبل.

وهكذا كان لا مناص أمام دول الجامعة العربية من أن تقبل في النهاية بالهدنة الثانية وأن تستجيب لقرار مجلس الأمن بوقف القتال، بتاريخ ١٨ تموز (يوليو) ١٩٤٨. وفعلت ذلك بعد أن أوصلت القضية الفلسطينية إلى منحدر خطير، وتركت الجزء الأكبر من فلسطين لليهود.

٥ ـ الدول العربية واتفاقات الهدنة في رودس:

وقد توّجت الدول العربية تنازلاتها هذه بسكوتها عن الاعتداءات الجديدة التي أخذت إسرائيل تقوم بها رغم قرار وقف القتال، وعن

(١) يحسن الرجوع خاصةً إلى كتاب محمد عزة دروزة: حول الحركة العربية الحديثة، الجزء الثاني، صيدا ـ بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٦٠، ص ١٨٤ ـ ٢٠٧.

الأراضي الجديدة التي راحت تحتلها، إلى أن ختمت أعمالها، أخيراً، بالتوقيع على اتفاقيات الهدنة مع إسرائيل، وفيها قدّمت ـ كما نعلم ـ تنازلات جديدة مخجلة.

وقد جنحت مصر في البداية إلى الدخول في محادثات منفردة لتوقيع الهدنة الدائمة. فالتقى وفدان عسكريان، مصري ويهودي، في جزيرة رودس اليونانية، وبدأت محادثات الهدنة تحت إشراف الوسيط الدولي رالف بانش، ووقّعت الاتفاقية بين الطرفين بتاريخ ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٤٩.

وكان طبيعياً أن تلحق بقية الدول العربية بمصر، فوقّع لبنان اتفاقية الهدنة في رأس الناقورة بتاريخ ٢٣ آذار (مارس) ١٩٤٩. ووقّعت سورية الاتفاقية بتاريخ ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٤٩. ثم وقّعت الأردن الاتفاقية في رودس، فكانت كارثة جديدة، إذ ضُمّ إلى القسم اليهودي بموجبها أكثر من نصف مليون دونم من أخصب أراضي فلسطين، مما كان في حوزة الجيشين العراقي والأردني. وهكذا ضُمّت إلى إسرائيل مساحات شاسعة من أراضي المثلث العربي ومن أراضي النقب الجنوبي من وادي عربة حتى البحر الأحمر.

وقد وصف الجنرال غلوب هذه الكارثة الجديدة وكيف تمّت بالتقسيط[١].

أمّا العراق فقد بقي خارج اللعبة لعدم وجود حدود مشتركة بينه وبين الدولة اليهودية.

وجدير بالذكر أن اتفاقيات الهدنة هذه ـ على خطورتها ـ قد خلت من أية إشارة إلى الجوانب السياسية للقضية، ولا سيما عودة اللاجئين إلى ديارهم.

---

(١) نقلاً من كتاب شفيق الرشيدات: فلسطين، مرجع سابق، ص ٢٧٧ ـ ٢٨٣.

تلك هي أهمّ الأمثلة على مسؤولية الدول العربية عن حرب عام ١٩٤٨ ونتائجها. وهي تكفي للدلالة على ضعف الموقف العربي وتخاذله، وعلى التزام الدول العربية أولاً وآخراً بعدم تخطيها حدود مشروع التقسيم خلال تلك الحرب. ولعلّ هذا الالتزام، مهما تكن دوافعه ومبرراته، هو المحور الذي دارت عليه الأحداث فيما بعد وتلوّنت بلونه. لقد كان كافياً للحكم على المعركة مسبقاً بالفشل. وقد استمسكت به بريطانيا والصهيونية وأمريكا لتجعله متكأً لخطوات أوسع، أدّت في النهاية إلى خلق دولة إسرائيل في إطار يجاوز كثيراً إطار مشروع التقسيم.

نظرة إجمالية

هكذا نرى في خاتمة المطاف كيف تضافرت جملة من العوامل في حرب عام ١٩٤٨، وكيف أدّت مجتمعةً إلى النهاية الأليمة التي انتهت إليها.

وإذا كانت هذه العوامل التي رأيناها ـ بريطانيا وأمريكا والصهيونية وهيئة الأمم والعرب أنفسهم ـ تؤلّف وحدة كثيرة أو كثرة واحدة، فإن من الصحيح كذلك أن كلاً منها كان له شأنه الخاص وأثره المساعد. ومع ذلك نستطيع أن نقول إنها جميعها تسقي من نبع واحد وتصدر عن ورد مشترك، هو الاستعمار جملةً. ولا يشذّ عن ذلك حتى العامل المتصل بدور العرب أنفسهم، كما رأينا. فهو أيضاً ينهل من ورد الاستعمار الذي كان مخيماً على البلدان العربية آنذاك، متحكماً في قدرها ومصيرها.

ولا نغلو إذا قلنا إنه لو قيّض لواحد من هذه العوامل أن يكون في منجاة من أثر الاستعمار، لتغيّر وجه المعركة ولاختلفت نتائجها. وبوجه خاص، لو استطاع العرب أن يوجّهوا المعركة بقواهم الذاتية

وجهودهم المستقلّة، لكان في مقدورهم أن يؤثّروا في العوامل الأخرى إلى حد بعيد وأن يشكلّوها تشكيلاً جديداً لصالحهم، وأن يفعلوا فيها بدلاً من أن ينفعلوا بها.

ولعلّ هذه النتيجة هي الدرس الأساسي الذي استخلصه العرب من نكبة عام ١٩٤٨، وهي التي حملتهم على أن يعيدوا النظر في حياتهم السياسية وفي بنيتهم الفكرية والاجتماعية والاقتصادية. وهذا ما ستعرض له في الفصلين التاليين.

ذلك أن الانتقال من موقف التبعية للاستعمار إلى موقف التحرّر منه والاستقلال عنه، بدا للعرب مطلباً لا يُمكن أن يتحقق إلاّ عن طريق تغيير جذري في بنية الحياة العربية، لا يقتصر على جوانبها السياسية بل يشمل سائر الميادين المؤثرة في هذه الجوانب السياسية والمتأثرة بها، سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم ثقافية. ولقد أدركوا في ظلمة النكبة أن سعيهم الجديد ينبغي ألا يستهدف مطلباً أقلّ من جعل الحياة العربية في مستوى العصر وفي شأو التقدم الذي تتحداهم قواه لدى الصهيونية والاستعمار.

الفصل الثاني

أثر الحرب على الشعب العربي الفلسطيني

من أهمّ نتائج الحرب العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٤٨ نزوح قرابة مليون عربي من أراضيهم إلى الدول العربية المجاورة أو إلى الأقسام المتبقية من فلسطين. وقد غادر هؤلاء مدنهم وقراهم ومزارعهم، مخلّفين ممتلكاتهم لليهود، وأقام معظمهم في المخيّمات ينتظرون العودة ويناضلون في سبيلها، متحملين ضنك العيش، مكرهين على الحياة ضمن ظروف أبعد ما تكون عن أدنى شروط الحياة الإنسانية.

أولاً ـ أثر الإرهاب الصهيوني في مأساة اللاجئين

ولا بد، قبل الحديث عن حجم هذه الهجرة والأشكال التي اتخذتها، من الإشارة إلى بدهية حاولت الصهيونية إنكارها وطمسها بوسائل مختلفة، ألا وهي أن هؤلاء المهاجرين الفلسطينيين الذين تركوا ديارهم، قد اضطروا إلى ذلك، لا بسبب الأحداث التي رافقت الحرب فحسب، بل بسبب سياسة الإرهاب التي اتبعها الصهاينة، تنفيذاً لمؤامرتهم ووصولاً إلى هدفهم الأساسي، نعني انتزاع أراضي فلسطين خلوةً من أهلها.

وقد انكشفت هذه الحقيقة البديهية اليوم، بعد أن رفضت إسرائيل عودة اللاجئين إلى ديارهم أو التعويض لهم عن ممتلكاتهم، رغم المحاولات العديدة التي قامت بها هيئة الأمم

وسواها[١]. وتكشف التصريحات الحديثة للمسؤولين الإسرائيليين حول هذه المسألة عن نواياهم الأصلية وعن مخططاتهم القديمة التي حاولوا أن ينكروها فترة من الزمن، بعد استنكار الضمير العالمي الحرّ لمأساة اللاجئين في السنوات التي تلت الحرب. وتشير هذه التصريحات اليوم إشارة واضحة إلى أن عودة اللاجئين إلى ديارهم تعني، في نظر المسؤولين الإسرائيليين، تهديد بنية الدولة الإسرائيلية وكيانها، ونقض وجودها من أساسه. ولهذا فهي ترفض ذلك رفضاً جازماً.

والحق أن هذا الموقف الذي اضطرت السياسة الإسرائيلية إلى الكشف عنه كشفاً واضحاً في السنوات الأخيرة، موقف رافق الحركة الصهيونية منذ بدايتها ووجّه السياسة الصهيونية قبل حرب عام ١٩٤٨ وبعدها[٢]. فلقد كان اليهود ـ ومن ورائهم بريطانيا وأمريكا ـ يدركون أعمق الإدراك أن ما يهدفون إليه من إقامة دولة صهيونية عنصرية يتنافى بالتعريف والضرورة مع بقاء العرب في ديارهم. فلم يدر في ذهن الصهيونيين يوماً أن يقيموا مع العرب دولة عربية يهودية يتعايش فيها العرب واليهود ويشتركون في حكمها. ومن هنا أفادوا من مشروع التقسيم الذي وضعه الاستعمار من أجل خلق كيان مستقل لدولة

---

(١) بين عامي ١٩٥٠ و١٩٦٧، اتخذت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة ١٨ قراراً تؤكّد فيها على حق اللاجئين بالعودة أو التعويض وفقاً لما نصّت عليه الفقرة الحادية عشرة من القرار المؤرّخ في ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨. ومع ذلك، ظلّ الإسرائيليون يرفضون التنفيذ ويطالبون بتوطين اللاجئين في البلدان العربية.

(٢) بعد أن تم فتح الوثائق الإسرائيلية حول حرب عام ١٩٤٨ ـ وذلك بعد مرور ثلاثين عاماً عليها كما ينصّ القانون ـ أخذ عدد من المؤرخين الإسرائيليين (الذين عُرفوا باسم المؤرخين الجدد) في كشف حقائق تلك الحرب، ولا سيما دور العنف الذي لجأ إليه الصهاينة في طرد العرب من ديارهم. ويحسن الرجوع في هذا المجال إلى الكتاب الـــهـــام الآتــــي: D. Nidal: *Le Péché original d'Israël*, Paris, Les Editions de l'Auteur. 1998.

إسرائيلية عنصرية، وذهبوا عملياً إلى ما هو أبعد منه. ولقد أخذوا من مشروع التقسيم مبدأه وأساسه وأهمّ ما فيه، نعني الإقرار بقيام دولة إسرائيلية مستقلة، دون أن يتمسكوا بالحدود التي اقترحها، بل جاوزوا تلك الحدود وأقاموا الدولة المنشودة ـ كما رأينا ـ من الجزء الذي خصّصه مشروع التقسيم لهم ومن معظم الأجزاء التي خصّصها ذلك المشروع للعرب. وحرصوا دوماً على أن يحتلوا هذه الأجزاء كلها خالية من سكانها العرب.

وهكذا لجأوا إلى سياسة الإرهاب والتخويف ـ كما سبق أن رأينا ـ من أجل حمل العرب على الخروج من ديارهم، وادعوا بعد ذلك، أمام الرأي العام العالمي، أن هؤلاء قد اختاروا ترك بلادهم عن طوع وقناعة. على أن المصادر الصهيونية نفسها تكذّب ادعاءهم هذا، وتكشف عن سياسة الإرهاب التي اتبعوها من أجل تهجير السكان العرب. فها هو ذا مناحيم بيغن، الذي أُطلق عليه آنذاك لقب قائد الجيش اليهودي غير النظامي، يقول مفاخراً في كتابه الثورة: «إن الأقاصيص المخيفة التي تدور حول «أرغون زفاي» انتشرت بعد ذلك من عربي إلى عربي وتسببت في فرار ٦٢٥ ألف عربي بطريقة جنونية مذعورة... ولا يمكن تقدير المغزى السياسي والاقتصادي لهذا التطور. ففي أوائل عام ١٩٤٨ قام جيش إسرائيل النظامي بتدمير شامل للقرى العربية، وبدأ العرب يهربون على نطاق ضيق في المراحل الأولى من الحرب، إذ هاجر منهم ٣٠ ألفاً من الموسرين. ثم أدّت مذبحة دير ياسين إلى تسريع الهروب، ولهذا فإنه عندما نفّذ التقسيم في منتصف أيار (مايو) كان عدد اللاجئين قد بلغ ٢٠٠ ألف لاجيء»[(١)].

ومثل هذه الاعترافات كرّرها العديد من الصهيونيين وردّدتها المصادر الموالية للصهيونية في أكثر من مناسبة. كذلك أكدت هذه

(١) نقلاً عن كتاب شفيق الرشيدات: فلسطين، م. س، ص ٣٢٦.

الحقيقة المصادر الأجنبية وتصريحات العديد من المسؤولين والكتّاب الأمريكيين والبريطانيين. وجميعها تؤكّد لجوء اليهود إلى إشاعة الرعب والذعر في أوساط العرب منذ قرار التقسيم، واصطناعهم عمليات إرهابية خطيرة، بل دعوتهم العرب إلى مغادرة بيوتهم لئلا يكون مصيرهم مصير أبناء دير ياسين أو سواها[1].

وحسبنا أن نشير من بينها إلى تصريح الجنرال غلوب نفسه حين قال: «لقد سمعت بأذني رجال الهاغناه اليهود يعلنون بمكبرات الصوت في القدس بعد مذبحة دير ياسين: طريق أريحا لا يزال مفتوحاً. أيها العرب اختاروا بين هذا الطريق وبين مصير كمصير دير ياسين».

حسبنا كذلك أن نشير إلى تصريح هال لهرمان، الموالي للصهيونية، في مجلة كومنتري حيث قال: «إن خوف الأهالي من تكرار مذبحة دير ياسين يُعتبر أحد الأسباب التي أدّت إلى هرب العرب إلى الجنوب. ولقد دُهشت من عبارات الحزن والخزي التي أفضى بها إليّ كبار الإسرائيليين الذين لا يشتغلون بالسياسة. . . فالجندي الإسرائيلي نهب وحرق وذبح كما سمعت. .»[2].

ولا حاجة إلى أن نورد شهادات كتّاب آخرين كثيرين، على رأسهم المؤرّخ الإنكليزي توينبي الذي استنكر أعمال اليهود الوحشية التي أدّت إلى طرد العرب من ديارهم، والذي رأى في جرائم إسرائيل والصهيونية «ما هو أفدح وأخطر من مأساة جرائم ألمانيا النازية»[3].

---

(١) نجد نماذج من اعترافات الصهيونيين والمسؤولين والكتّاب الأميركيين والبريطانيين وسواهم في كتاب شفيق الرشيدات المذكور سابقاً، وفي كتاب سامي هدّاوي الحصاد المر: S. Hadawi: *Bitter Harvest*, New York, The New World Press, 3rd. printing, 1967, pp. 187 - 189.

(٢) نقلاً عن كتاب شفيق الرشيدات: فلسطين، م. س، ص ٣٢٦.

(٣) انظر في هذا المجال كتاب سامي الهدّاوي المذكور سابقاً، ص ١٨٨ وما بعدها. وانظر أيضاً كتاب شفيق الرشيدات المذكور سابقاً، ص ٣٢٣ و٣٢٤.

ثانياً ـ مراحل تهجير العرب من فلسطين

ولقد نفّذت السياسة الصهيونية ـ ومن ورائها السياسة البريطانية ـ هدف تهجير العرب هذا على مراحل ثلاث قبيل حرب عام ١٩٤٨ وأثناءها وبعدها[١].

١ ـ **المرحلة الأولى** بدأت عندما اتخذت بريطانيا ـ كما رأينا ـ قرارها الخاص بالتخلّي عن الانتداب في شباط (فبراير) ١٩٤٧ واستمرت حتى ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨. وقد رأينا كيف سحبت بريطانيا قواتها قبل انتهاء الانتداب من المناطق اليهودية ومن المناطق التي أرادتها لليهود، وكيف تركت العرب العزّل تحت رحمة المنظمات العسكرية اليهودية وتحت وطأة إرهابها.

وهكذا ارتكب اليهود أعمالهم الوحشية الشهيرة في دير ياسين والناصرة والقسطل ويافا وغيرها، وكان على العرب أن يختاروا بين الموت أو النزوح، فقُتل منهم من قُتل، وفرّ من استطاع الفرار. وكان حصاد هذه المرحلة الأولى ٣٦٠ ألف لاجىء فلسطيني[٢].

٢ ـ **المرحلة الثانية** بدأت بدخول الجيوش العربية إلى فلسطين في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ واستمرت حتى إقرار الهدنة الثانية في شباط (فبراير) ١٩٤٩. فقد أدّت الحرب الزائفة التي خاضتها الجيوش العربية في فلسطين إلى هجرة عدد جديد من السكان، تحت وطأة الهجمات اليهودية والإرهاب اليهودي. وكانت حصيلة هذه المرحلة ٤٨٠ ألف لاجىء استقروا في لبنان وسورية والأردن وفي الأجزاء الغربية والشرقية المتبقية من فلسطين[٣].

٣ ـ **المرحلة الثالثة** كانت بعد إقرار اتفاقيات الهدنة في رودس

---

(١) انظر في هذا المجال كتاب شفيق الرشيدات المذكور سابقاً، ص ٢٩٨ ـ ٣٠٤.

(٢) شفيق الرشيدات، فلسطين، م. س، ص ٢٩٩.

(٣) المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

عام ١٩٤٩. فقد أدى تنفيذ هذه الاتفاقيات ـ كما سبق أن رأينا ـ إلى ضمّ أجزاء جديدة من الأراضي العربية، وإلى تهجير سكانها. وكانت حصيلة هذه المرحلة ١٨١ ألف لاجئ، ظلّوا في قراهم على الحدود دون أرض أو عمل أو مورد رزق، وأطلق عليهم اسم «سكان القرى الأمامية» وحُرموا من المساعدات التي تُعطى للاجئين. ثم أُضيف إليهم ١٠٠ ألف لاجئ طردتهم إسرائيل بعد توقيع اتفاقيات الهدنة، تحت ستار ما أسمته «أمن إسرائيل»[١].

وهكذا لم يبقَ من العرب داخل فلسطين بعد اتفاقيات الهدنة سوى حوالى ١٧٠ ألف عربي، بعد أن كان عددهم، حسب آخر إحصاء بريطاني (عام١٩٤٨)، ١,٣٠٠,٠٠٠ عربي في مقابل ٦٣٠,٠٠٠ يهودي.

ثالثاً ـ أعداد اللاجئين وفق تقارير وكالة الغوث الدولية

ولم يصدر إحصاء دقيق عن عدد اللاجئين بعد حرب عام ١٩٤٨ وعن توزعهم على البلدان العربية وفي العالم. غير أن وكالة الغوث الدولية (الأونروا) التي أوكلت إليها هيئة الأمم أمر العناية باللاجئين، قدّرت عدد اللاجئين المسجّلين لديها فقط والذين يتناولون مساعدات دولية، في تقرير قدّمه المدير العام للوكالة في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٥٤، وبلغ هذا العدد في تقديرها ٨٨٧,٠٤٠ لاجئ، موزعين في البلدان العربية على النحو التالي:

العدد	المنطقة
٤٨٦ر٦١٣	في الأردن
٢١٢ر٦٠٠	في قطاع غزة
١٠١ر٦٣٦	في لبنان
٨٦ر١٩١	في سورية
٨٨٧ر٠٤٠	المجموع

(١) المرجع نفسه، ص ٢٩٩ .

وهذا العدد كما ذكرنا هو الذي سجّلته الوكالة والذي اعترفت بحقه في الإعاشة. وتُضاف إلى هذا العدد أعداد أخرى لم تعترف بها الوكالة، موزّعة على النحو التالي[1].

العدد	المنطقة
٣٤٫٣٨٠	لاجئون في المنطقة المحتلة من إسرائيل اعترفت بهم الوكالة بعد الإحصاء
٨٠٫٠٠٠	في العراق
٩٠٫٠٠٠	في مصر
٢٨٫٤٠٠	في لبنان
٣٠٫٠٠٠	في باقي الأقطار العربية
٤٥٫٨٠٩	لاجئون لم تعترف الوكالة بحقهم في الإعاشة ثم اعترفت بوجودهم في تقريرها العام سنة ١٩٥١/ ١٩٥٢
١٨١٫٣٨٩	سكان القرى الأمامية (نقلاً عن تقديرات الأمم المتحدة)
٤٨٩٫٩٧٨	المجموع

وبذلك يبلغ مجموع اللاجئين حسب هذه التقديرات ١٫٣٧٧٫٠١٨ لاجئاً عام ١٩٥٤.

رابعاً ـ خسائر الفلسطينيين في الأراضي والممتلكات[2]

لم تكتف إسرائيل بطرد العرب وتهجيرهم، بل استولت على

(١) انظر: المرجع نفسه، ص ٣٠١.

(٢) يحسن الرجوع إلى كتاب تهويد فلسطين، من إعداد الدكتور إبراهيم أبو لغد، وترجمة الدكتور أسعد رزوق، بيروت، مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٩٧٢، القسم الثاني (٤): «حركيات استلاب الأراضي»، بقلم جون رودي. ص ١٣٣ ـ ١٥٥. كذلك يحسن الرجوع إلى هذا الكتاب في ما يتعلق بأعداد اللاجئين (القسم الثاني (٥): «التحول الديمغرافي لفلسطين»، بقلم جانيت أبو لغد، ص ١٥٥ ـ ١٨٣).

أموالهم وممتلكاتهم. وقد سبق أن رأينا كيف أنها لم تقنع باحتلال الأراضي المخصصة لها حسب قرار التقسيم، بل زادت عليها، بحيث احتلت في النهاية أكثر من ٨٠٪ من الأرض الفلسطينية.

ولقد قدّر خبراء لجنة التوفيق الدولية (عام ١٩٥١) أن ما يزيد على ٨٠٪ من مساحة إسرائيل الكلّية وأكثر من ثُلثي الأراضي المزروعة فيها أراضٍ عربية، هجرها اللاجئون العرب تحت ضغط الإرهاب والعنف وفي أثناء الحرب، وأكدوا أن ثُلث سكان إسرائيل من اليهود يعيشون في ممتلكات اللاجئين، وأن ثُلث المهاجرين الجدد قد أقاموا في المدن والقرى العربية، وأن العرب كانوا يملكون من الأراضي الصالحة للزراعة مرتين ونصف أكثر مما يملكه اليهود، وقد استولى عليها هؤلاء بعد أن طردوا أصحابها[1].

وأثبت التقرير كذلك أن اليهود استولوا على ١٥ مدينة عربية صرفة، وعلى ما يخصّ العرب اللاجئين في ثلاث مدن مختلطة، وعلى ٧٠٠ قرية عربية خالصة، مع كل ما في تلك المدن والقرى من أبنية ومصانع ومتاجر ومنقولات ومع كل ما لسكانها من أرض وزرع وحيوان. وذكر التقرير كذلك أن ٣٥٠ مستعمرة، من أصل ٣٧٠ مستعمرة جديدة أنشأتها إسرائيل، أُقيمت في أرض عربية.

وقد قدّرت لجنة التوفيق أيضاً قيمة الممتلكات العربية التي استولت عليها إسرائيل على النحو التالي (بملايين الجنيهات الاسترلينية):

١٠٠	قيمة بيارات الموالح والحمضيات
٢٧٥	قيمة كروم الفاكهة والزيتون
٥٠	قيمة الأراضي الجيدة
٢٥٠	قيمة الأراضي نصف الزراعية

---

(١) نقلاً عن شفيق الرشيدات، المرجع السابق، ص ٣٠٣.

٢٠٠	قيمة الأموال المنقولة
١١٠٠	قيمة الأبنية
١	قيمة بيّارات الموز

المجموع: ١٩٩٦ مليون جنيه استرليني

أي أن مجموع قيمة ممتلكات العرب التي استولت عليها إسرائيل حسب تقدير اللجنة يبلغ حوالى ملياري جنيه استرليني، عدا عن ملايين الجنيهات النقدية التي استولت عليها إسرائيل من البنوك والمؤسسات المصرفية العربية ومن منازل العرب ومحلاّتهم التجارية.

وقد قُدِّرت الماشية التي كان يملكها العرب عام ١٩٤٤ بمليون رأس، وقُدِّرت الضريبة المدفوعة عنها عام ١٩٤٦ بمبلغ ٧٤٤ ألف دولار. وأنتجت بساتين الحمضيات العربية التي استولت عليها إسرائيل مليوناً ونصف مليون صندوق عام ١٩٥١، وأمنّت ١٠٪ من مجموع الدخل القومي. وكان أكثر من ربع المباني في دولة إسرائيل عام ١٩٥٤ ملكاً للعرب، وكان أكثر من ثلثي إنتاجها الزراعي من الأراضي العربية. وقد استولت إسرائيل على هذه الممتلكات جميعها منذ عام ١٩٤٨ واستغلّتها في إقامة كيانها ودعم اقتصادها وتوطين مهاجريها[١].

خامساً ـ مسألة اللاجئين ووكالة الغوث الدولية

في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٨، أصدرت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة القرار التالي: «بما أن مشكلة إغاثة اللاجئين الفلسطينيين هي إحدى المشكلات الملحة، وبما أن وسيط الأمم المتحدة لفلسطين قد بيَّن أنه لا بدّ من اتخاذ عمل لتحديد وسائل الإغاثة الضرورية لهم وحجمها، وأنه لا بد من الخيار بين إنقاذ حياة الآلاف الكثيرة وبين القبول بتركهم يموتون، وبما أن تخفيف حالة

(١) نقلاً عن المرجع السابق، ص ٣٠٥.

الفاقة والضيق بين اللاجئين هو أدنى ما يستلزمه نجاح مجهودات الأمم المتحدة من أجل السلام، فإن الجمعية تقرّر اعتبار مبلغ ٢٩ مليون دولار ونصف المليون ضرورياً لإعاشة نصف مليون لاجىء لمدة تسعة أشهر، مع ضرورة اعتماد مبلغ إضافي يُقدر بمليونين ونصف مليون دولار للنفقات الإدارية».

وقد أهابت الجمعية في نهاية قرارها بالدول الأعضاء وغير الأعضاء لتقديم التبرعات لمساعدة اللاجئين، واعتمدت منظمات الصليب الأحمر في العالم، وجمعيات الأصدقاء الأمريكية، ومنظمات الأمم المتحدة الخيرية والصحية والاجتماعية، لتقديم المساعدات وأعمال الإسعاف للاجئين.

وفي ١ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٩ تكوّنت بموجب قرار الجمعية العامة «لجنة الاستقصاء الاقتصادي للشرق الأوسط»، وهي المعروفة بـ «لجنة كلاب»، وقدّمت في ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٩ تقريرها الأول إلى الجمعية العامة، وفي ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩ تقريرها النهائي، وضمّنته توصيات لمعالجة مشكلة اللاجئين. وقد ورد في تقريرها الأول ما يأتي: «إن النزاع العربي ـ اليهودي يمنع الوصول إلى حل سريع لقضية اللاجئين عن طريق العودة أو الإسكان.. وإن إغاثة الأمم المتحدة قد أنقذت اللاجئين من مأساة رهيبة. غير أن الاستمرار في هذه الإغاثة دون إجراءات أخرى قد يخلق عراقيل يصعب التغلّب عليها.. **ولذلك، فإن من اللازم الشروع في الانتقال من مرحلة الإغاثة إلى مرحلة تشغيل اللاجئين**.. فيجب توفير فرص العمل للاجئين في البلدان التي يقيمون فيها.. بما يكفل زيادة إنتاجها...». وأوصت اللجنة باستمرار برنامج الإغاثة حتى نيسان (إبريل) ١٩٥٠، على أن يتناقص عدد اللاجئين تدريجياً خلال تلك الفترة..

وهكذا نرى أن الأمم المتحدة ـ بعد أن حوّلت قضية فلسطين

إلى قضية لاجئين ـ أخذت تتراجع حتى عن هذه الخطوة الهزيلة وبدأت ترى في استمرار الإغاثة عبئاً ثقيلاً وتنادي باعتماد اللاجئين على أنفسهم وتوطينهم نهائياً في البلدان العربية التي لجأوا إليها.

وقد تابعت هيئة الأمم المتحدة هذا الخط وأيدته في قرارات لاحقة، من مثل قرارها الصادر بتاريخ ٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٠ الذي ينصّ على إنشاء **صندوق لإدماج اللاجئين** (إدماجهم في حياة «الشرق الأدنى»)، ومن مثل قرارها الذي صدر في ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٣ والذي أقرّت فيه **برنامج دمج اللاجئين في حياة المنطقة**، ورصدت فيه لتنفيذ هذا البرنامج مبلغ ٢٠٠ مليون دولار (مقابل ٥٠ مليون دولار لبرنامج الإغاثة).

ولا بد أن نتساءل أخيراً عن حجم هذه «الإغاثة» التي تقدّمها هيئة الأمم المتحدة للاجئين عن طريق «وكالة الإغاثة»، وعن نوعها ومستواها. وههنا نجد ما يخجل ويؤلم: فالإغاثة لا تشمل أكثر من ٥٥٪ من اللاجئين. وهي في نوعها ومستواها دون ما يقبله الإنسان لأخيه الإنسان، ودون الحدّ الأدنى اللازم للحياة.

إن المأوى الذي هيأته الوكالة للاجئين لا يعدو ـ كما نعلم ـ معسكرات محشورة من الخيام الممزقة أو الطين المتآكل أو البرّاكات البالية، أُقيمت في الأراضي الرملية أو عند أطراف المدن والقرى، وكدّست في كل خيمة أو برّاكة لا تزيد مساحتها على عشرة أمتار مربعة، عائلة مؤلفة من ٥ ـ ١٠ أشخاص. وحتى هذا المأوى الذليل لم يتيسر لكل اللاجئين، ولم يُفد منه حتى عام ١٩٥٨ إلاّ ٤٣٪ فقط من اللاجئين المسجّلين. أما الباقون فقد أقاموا في الكهوف والمغاور أو يبيتون في العراء وتحت الأشجار.

ثم إن المبلغ الذي تخصّصه الوكالة للخدمات المختلفة التي تقدمها للاجىء مبلغ هزيل لا يسمن ولا يغني من جوع. فهي لا تنفق

عليه سنوياً أكثر من ٢٧ دولاراً تدخل ضمنها النفقات الإدارية ونفقات السفر والنقل ومرتبات موظفي الوكالة. وإذا نحن حذفنا هذه النفقات الأخيرة، لم يجاوز ما تنفقه الوكالة سنوياً على كل لاجىء ٢٠ دولاراً مقابل مأواه ومعالجته وإطعامه وإكسائه وتعليمه وتأهيله!

وطبيعي بعد هذا أن يكون ما يناله اللاجئون من الرعاية في التغذية والعناية الصحية مخجلاً بائساً: فقد بلغ أقصى ما يناله اللاجىء من الغذاء ١٦٠٠ وحدة حرارية شتاءً و١٥٠٠ وحدة حرارية صيفاً (بينما قدّر المركز العام للصليب الأحمر الدولي في جنيف الحد الأدنى من الوحدات الحرارية المطلوبة للمعيشة الأولية للإنسان بـ ٣٥٠٠ وحدة حرارية). هذا بالإضافة إلى أن طعام اللاجىء لا يحتوي على أي نوع من الطعام الطازج أو البروتين الحيواني.

أما العناية الصحية فهي أيضاً هزيلة: ويكفي أن نذكر أن هنالك ـ في محيط اللاجئين ـ طبيباً لكل ٩٠٠٠ لاجىء، وطبيب أسنان لكل ٨٢ ألف لاجىء، وصيدلياً واحداً لكل ١٥٠ ألف لاجىء، وعيادة أو مستشفى أو مستوصفاً واحداً في محيط كل ١٠ آلاف لاجىء[١].

وطبيعي أن تؤدي هذه العناية الصحية الضعيفة إلى انتشار الأمراض المختلفة في أوساط اللاجئين: فكان هنالك مثلاً (عام ١٩٦٠) حوالى ٣٦٧ ألف حالة مرض عيون (ما بين تراخوما ورمد)، وأكثر من ٩٩ ألف حالة ملاريا.

سادساً ـ السكان العرب في إسرائيل بعد حرب عام ١٩٤٨

لن نتحدث عن السكان العرب تحت الاحتلال، وسنكتفي

(١) ننقل هذه الأرقام كلها عن كتاب شفيق الرشيدات المذكور سابقاً (ص ٣١٥ ـ ٣١٩)، وهي أرقام مستندة إلى إحصاءات عام ١٩٦٠. على أنها تنطبق في الجملة على سائر السنوات.

بالإشارة العابرة إليه، في إطار معالجتنا لأثر حرب عام ١٩٤٨ على الشعب العربي الفلسطيني.

لقد سبق أن ذكرنا أن حوالى ١٧٠ ألف عربي ظلّوا في الأراضي التي احتلتها إسرائيل بعد انتهاء حرب عام ١٩٤٨ وبعد توقيع اتفاقيات الهدنة. وبين هؤلاء ١٣٤ ألف مسلم و٣٥ ألف مسيحي. كما أن بينهم ٣٢ ألفاً تقريباً من سكان المدن و١٢٠ ألفاً من سكان القرى و١٨ ألفاً من البدو.

ومنذ إعلان قيام دولة إسرائيل في ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨، وضعت السلطات هناك جملةً من القوانين التي تضيِّق على هؤلاء العرب المقيمين في إسرائيل وتخضعهم للأحكام العسكرية.

وكان أول هذه القوانين «قانون الإدارة والشؤون البلدية» الذي خوّل وزير الدفاع إصدار «تنظيمات طارئة» تحدّ من حركة الأقليّة العربية وتقيّد حرياتها.

كذلك طبّقت السلطات الإسرائيلية على الأقليّة العربية «تنظيمات الدفاع» التي كانت حكومة الانتداب قد وضعتها لمحاربة الإرهاب اليهودي.

ثم خطت هذه السلطات خطوة جديدة، فقسّمت المناطق التي كانت تعيش فيها أكثرية عربية إلى ثلاث مناطق عسكرية:

١) القطاع الشمالي، أو قطاع الجليل، ويضم قرابة ١٣٠ ألف عربي.

٢) القطاع الأوسط، أو «المثلث الصغير»، كما شاعت تسميته، ويقع على حدود الضفة الغربية للأردن، ويضم حوالى ٣٥ ألف عربي.

٣) قطاع بير سبع، أو قطاع النقب، وتحدّه الضفة الغربية من الشمال ومصر وقطاع غزة من الغرب، ويضم حوالى ١٤ ألف عربي من البدو.

في هذه القطاعات، التي اعتبرت «قطاعات أمنيّة»، لا يسمح لأي إنسان بالدخول، إلاّ إذا كان جندياً أو من رجال الشرطة.

وقد شكّلت بعد ذلك محاكم عسكرية لمحاكمة الأشخاص الذين يُتهمون بمخالفة نصوص «تنظيمات الطوارىء» (أو تنظيمات الدفاع)[1].

وفي عام ١٩٥٠ سنّت السلطات الإسرائيلية «قانون العودة»، وألحقت به عام ١٩٥٢ «قانون الجنسية». وكلا القانونين يمنح اليهود امتيازات خاصة، يُستثنى منها العرب.

فلا يكفي ـ تبعاً لهذين القانونين ـ أن يكون العربي الفلسطيني قد ولد في أرض فلسطين، كي يحصل على الجنسية بشكل آلي. بل لا بد له من التجنّس للحصول على جنسية المواطن الإسرائيلي. وهذا التجنّس لا يتمّ إلا إذا أثبت أنه ولد في البلد، وعاش تحت الاحتلال الإسرائيلي مدة ثلاث سنوات من أصل السنوات الخمس التي تسبق تاريخ طلبه للجنسية، وأنه قد استقر نهائياً في البلد أو يريد الاستقرار فيه نهائياً، وأنه يعرف اللغة العبرية. وحتى إذا توافرت هذه الشروط جميعها، يظلّ من حق وزير الداخلية أن يقبل طلبه أو يرفضه.

وفي ظلّ هذه القوانين الجائرة التي وضعتها السلطات الإسرائيلية بعد حرب عام ١٩٤٨، كان يحق لها مصادرة أموال العرب المقيمين في إسرائيل، كما كان يحق لها أن تحتلّ بعض القرى العربية وتعتبرها «مهجورة»، سواء أكان سكّانها قد هجروها فعلاً أم لا. وقد صدر في آذار (مارس) ١٩٥٣ «قانون حيازة الأراضي» يمنح صفة الشرعية ما تمّ حتى ذلك الحين من استيلاء على الأراضي العربية. وبنتيجة هذا

(١) من أجل مزيد من التفصيل حول السكان العرب في فلسطين بعد حرب عام ١٩٤٨، يحسن الرجوع إلى كتاب سامي هدّاوي المذكور سابقاً، Sami Hadawi: *Bitter Harvest*, op. cit., ch. XI, pp. 190 - 225.

القانون وقانون «تنظيمات الطوارىء» من قبله، تم استيلاء السلطات الإسرائيلية على ما يقرب من ١٦ ألف هكتار من الأراضي التي كانت للأقلية العربية المقيمة في إسرائيل.

وفي الجملة خضع العرب القلائل الذين ظلّوا في إسرائيل بعد عام ١٩٤٨ لشتى أنواع الإذلال، واعتُبروا في أحسن الأحوال مواطنين من الدرجة الثانية، وتعرّضوا للتشريد من بعض قراهم وللحدّ من حرية تنقلهم ولمصادرة أراضيهم وممتلكاتهم ولسائر أنواع الفصل والتمييز والاضطهاد. تشهد على ذلك كله القوانين التي صدرت والتي ذكرنا بعضها، وتشهد عليه كذلك تصريحات العديدين من الكتّاب والصحفيين الذين تحدّثوا عن أوضاع العرب في إسرائيل[١].

---

(١) انظر كتاب سامي هدّاوي المذكور سابقاً. وانظر خاصة كتاب صبري جريس: **العرب في إسرائيل** (في جزئين)، بيروت، مركز الأبحاث، ١٩٦٧.

الفصل الثالث

أثر الحرب على الأوضاع السياسية العربية

مقدمة

لقد كان طبيعياً أن تؤدّي حرب ١٩٤٨ وما رافقها من مواقف وأخطاء وما انتهت إليه من إقامة كيان عنصري استيطاني في أرض فلسطين العربية، إلى هزّات عميقة في شتى جوانب الحياة العربية.

فالنكبات الكبرى التي وقعت لا بد أن تؤدّي إلى تعرية الواقع الذي قاد إليها، وأن تكشف عن علله وأدوائه العميقة، من أجل البحث عن منطلق جديد قادر على تجاوزها والتغلّب عليها.

و«نكبة فلسطين» كما شاعت تسميتها، كشفت دون شك عن وهن الوجود العربي الذي سبقها وعن تداعي الأسس التي قام عليها، ودفعت العقل العربي إلى البحث عن صيغة جديدة للحياة العربية قادرة على الصمود في وجه العدوان التوسعي الصهيوني وعلى تحرير الأرض المغتصبة.

ومن الطبيعي أن تأخذ النكبة، أولاً وقبل كل شيء، طابع رد الفعل على الأوضاع والنظم التقليدية التي سادت قبلها والتي كانت مسؤولة عن حدوثها. ومن الطبيعي كذلك، وقبل ذلك، أن يكون رد الفعل هذا رداً شاملاً جذرياً، يتناول صميم الوجود العربي، في مظاهره السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ويبحث عن ثورة

جامعة تؤدّي إلى انقلاب كامل في بنية ذلك الوجود.

ولا حاجة إلى القول إن للنكبات والكوارث الكبرى قوانينها وآثارها التي تكاد تكون ثابتة، وإنها دوماً وأبداً عامل رئيسي في تحريك الشعوب ودفعها إلى إنكار أسس حياتها المألوفة، وإنها باعث حيّ لا يُغالب على ولادة نظرة ثورية جديدة تحاول تجديد قوة الشعب وحيويته، وتؤدّي إلى حدوث تحوّلات أساسية في مجرى حياته.

فالنكبة الكبرى، حين تحلّ بشعب من الشعوب، لا بد أن تعني في نظر الأفراد والجماعات إفلاس الوجود الذي أدّى إليها، وأن تحرّض بالتالي على هدم العلاقات العضوية التقليدية القائمة، وأن تطلق في النهاية قوة ثورية كبيرة تبحث عن علاقات جديدة وحياة جديدة.

ولئن كان هذا الانقلاب على الوجود التقليدي السابق على النكبة انقلاباً لا بد أن يشمل هذا الوجود بكامله في شتى مظاهره، فهو مع ذلك يتناول بالدرجة الأولى المظهر الأساسي المعبِّر عن ذلك الوجود والمسيِّر له والأداة العملية في تغييره بالتالي، نعني الأوضاع السياسية، بوصفها حصيلة حياة الأمة والتجلّي السلوكي العملي لها.

ومن هنا أخذنا نشهد في طول البلدان العربية وعرضها، بعد نكبة فلسطين خاصة، هزّات سياسية كبرى، استهدفت رفض البنى السياسية القديمة وصياغة بنى سياسية محدثة، قادرة على مواجهة التحدي الكبير الذي يتحدّى الحياة العربية في حاضرها ومستقبلها.

وهكذا ظهرت حركات حزبية وثورات سياسية وانقلابات عسكرية وتحوّلات جذرية في أنظمة الحكم في البلدان العربية، مثّلت إلى حد بعيد جواب الجسم العربي على النكبة التي حلّت به، وصبوته إلى تجديد حيويته ونشاطه وقدرته على الصمود والنصر.

ولا يعني هذا أن كل ما حدث في البلدان العربية من تحوّلات

في الأوضاع السياسية كان وليد حرب عام ١٩٤٨ وحدها. فمن الهام أن نذكر أن هزيمة عام ١٩٤٨ كانت مرحلة حاسمة من مراحل أزمة قومية بعيدة، تمتدّ جذورها إلى بداية المسألة الفلسطينية، بل تمتد إلى أبعد من ذلك فتتصل بأزمة التخلّف التي عرفها الوطن العربي منذ قرون. وما هزيمة حرب ١٩٤٨ سوى تتويج أليم لعجز عربي قديم ولتخلّف حضاري معمّر، كانت المسألة الفلسطينية مجرد كاشف عنه وفاضح لعلله وآفاته المقيمة منذ زمن بعيد. غير أن هزيمة تلك الحرب - لشدّتها وشمولها واتساع دلالاتها - كانت بالضرورة باعثة على قيام موقف حاسم وشامل من الكيان العربي العاجز. فالمسألة الفلسطينية في جملتها ومنذ بدايتها لعبت دور العامل المحرّض على تفحّص الكيان العربي وعلى وضعه موضع التساؤل. ثم جاءت هزيمة عام ١٩٤٨ فأعطت هذا التفحّص وهذا التساؤل طابعاً حاداً، ودفعته إلى أن يكون في مستوى الهزيمة عمقاً وجدية وحسماً.

يشهد على هذه الحقيقة أن كثيراً من الحركات السياسية التي دعت إلى تغييرات جذرية وشاملة في طبيعة الحياة العربية، ظهرت في الواقع قبل نكبة عام ١٩٤٨ (من مثل الحركات السياسية التي تمثّلت في الأحزاب الشيوعية وحزب البعث العربي والحزب القومي السوري، وفي الثورات المقاومة للاستعمار وعلى رأسها ثورة عام ١٩١٩ في مصر، وثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١ في العراق، والثورات المتتالية في الجزائر والمغرب وتونس وليبيا وسواها).

ويشهد على ذلك أيضاً أن ثورة ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ في مصر، لم تكن تسقي جذورها من نكبة فلسطين وحدها، بل كانت في الواقع ثورة على جملة من الأوضاع السياسية السيئة التي عرفتها مصر، وعلى الاستعمار البريطاني المتحكّم في حياتها، وعلى سائر عوامل التخلّف التي أدّت في ما أدّت إلى هزيمة الجيش المصري في حرب

عام ١٩٤٨. وهذا ما عبّر عنه أوضح تعبير الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في كتابه **فلسفة الثورة**[١].

غير أن هذه الحقيقة لا تنفي حقيقة أخرى، وهي أن هذه الحركات السياسية جميعها التي ظهرت قبل النكبة، اكتسبت بعدها وضوحاً في الرؤية وعمقاً في التحليل، وغدت أكثر ارتباطاً بالمواقف الجذرية، وأكثر قدرة على النجاح وعلى الانتشار في صفوف الجماهير والتأثير في مجرى الحياة السياسية في البلدان العربية.

وبكلمة موجزة، لقد كانت المواقف الإصلاحية التعديلية، مواقف مقبولة في الحياة العربية قبل تفاقم المشكلة الفلسطينية عامة وقبل نكبة عام ١٩٤٨ بوجه خاص. أما بعد أن اشتدت المشكلة الفلسطينية وبعد أن تعاظم الخطر الصهيوني وبعد أن اقتلع بعد النكبة جزءاً من الأرض العربية، فالحلول الإصلاحية لم تعد مقبولة، وحلّت محلها الحلول الجذرية التي تريد أن تحدث انقلاباً شاملاً وعميقاً في طبيعة الحياة العربية.

ومن العسير أن نحيط بجميع مظاهر التحوّل التي أصابت الحياة السياسية العربية بعد نكبة عام ١٩٤٨. وحسبنا أن نشير إلى أبرز هذه المظاهر فيما يلي من هذا الفصل.

أولاً ـ انتزاع السلطة من القيادات التقليدية

لعلّ المظهر الأول البارز لهذه التحوّلات، والذي يكاد يجمعها

---

(١) ورد في هذا الكتاب: «ليس صحيحاً أن ثورة ٢٣ يوليو قامت بسبب النتائج التي أسفرت عنها حرب فلسطين». وورد فيه كذلك: «ومرة أخرى دعوني أنبّه إلى أن الهزيمة في فلسطين والأسلحة الفاسدة وأزمة نادي الضباط.. لم تكن المنابع الحقيقية التي تدفق منها السيل. لقد كانت كلها عوامل مساعدة على سرعة التدفق. ولكنها لا يمكن أبداً أن تكون هي الأصل والأساس».

كلها، هو ذلك التحرك الذي حدث في الحياة السياسية العربية في اتجاه القضاء على السلطات السياسية التقليدية، باعتبارها المسؤولة عن النكبة (ولا سيما في البلدان العربية المجاورة لفلسطين).

ولقد سبق أن رأينا ـ في تقييمنا العام للحرب ـ كيف كانت الفئات الحاكمة في معظم البلدان العربية سبباً أساسياً من أسباب الهزيمة، انضاف إلى الأسباب الأخرى (الاستعمار البريطاني والامبريالية الأمريكية والصهيونية العالمية وهيئة الأمم المتحدة) بل تكامل معها وسهّل مهمتها.

من هنا كان طبيعياً أن تنصبّ نقمة الجماهير العربية ـ في بحثها عن العلل والأدواء وتفتيشها عن «كبش فداء» ـ على تلك السلطات الحاكمة التي اعتبرتها مسؤولة عن النكبة. وفي هذا ـ كما سبق أن قلنا ـ تصديق لقانون يكاد يكون ثابتاً من قوانين النكبات والثورات. فمن النتائج المحتومة للنكبات الكبرى أنها تؤدّي بالضرورة إلى انحلال الأنظمة التقليدية وإلى تفكك البنى السياسية القديمة. ومن آثار أي انكسار ضخم أن يؤدي إلى هزّ قواعد النظام السياسي والاجتماعي وإلى تهديد الطبقات الحاكمة الوصية على ذلك النظام.

وهذا ما حدث في البلدان العربية بعد نكبة عام ١٩٤٨. لقد تعرّضت معظم أنظمة الحكم العربية (ولا سيما في البلدان المجاورة لفلسطين) لهزّات كبرى، ووجدت الحركات السياسية الجديدة مجالاً رحباً للتقدم والبروز، واستطاعت أن تستقطب الجماهير من خلال معاداة الفئات الحاكمة والعمل على إسقاطها. وغدت البدهية الأولى في العمل السياسي ـ وفي العمل للقضية الفلسطينية التي أصبحت محوراً هاماً له ـ أن أي تغيير منشود في الحياة العربية، من أجل إعادة بنائها وجعلها قادرة على مواجهة التحدي الصهيوني الامبريالي، لا يمكن أن يتمّ إلاّ عبر تغيير الأنظمة العربية القائمة التي اعتُبرت مسؤولة

عن الهزيمة، فضلاً عن كونها عاجزةً عن تحقيق التقدّم المرجو في كيان الحياة العربية. وهكذا ارتبط العمل من أجل القضية الفلسطينية، ومن أجل إعادة بناء الحياة العربية، ارتباطاً عضوياً بالعمل على تغيير أنظمة الحكم القائمة.

وكان طبيعياً أن ينصبّ هذا التغيير المنشود في أنظمة الحكم القائمة على جملة ما تمثّله هذه الأنظمة من أفكار ومبادىء وأساليب في العمل السياسي. ولم يكن هذا التغيير بالتالي يستهدف القضاء على أشخاص الحاكمين، بقدر ما كان يستهدف القضاء على نظرتهم السياسية وفلسفتهم الاجتماعية. وكان المطلوب إذن تغيير الطبقة الاجتماعية الحاكمة ـ وما تمثّله من مصالح مرتبطة بالاستغلال وبالاستعمار ـ وقيام جيل حاكم جديد يمثّل الانفصال عن الواقع الفاسد، ويُعبّر عن صبوة الجماهير إلى حياة جديدة، متحرّرة من الاستعمار، محقِّقة للعدالة الاجتماعية، نزّاعة إلى دخول العصر الحديث في شتى أبعاده.

والأمثلة عديدة على هذه التحولات التي حدثت في الحياة السياسية العربية، والتي استهدفت تغيير الطبقة الحاكمة التقليدية لكي تستبدل بها أنظمة حكم جديدة أكثر تعبيراً عن مطالب الجماهير. وحسبنا منها بعض الشواهد:

١ ـ **في سورية**، كانت الفئة الحاكمة أثناء معركة عام ١٩٤٨ هي الرعيل الأول من السياسيين الذين شهدوا عهد الانتداب الفرنسي كما شهدوا عهد الاستقلال (منذ عام ١٩٤٥) والذين كانوا يمثّلون الحركة الوطنية التي رفضت التعاون مع الانتداب وناضلت ضده، دون أن تحقّق الانفصال الكامل عنه، بحكم تاريخها معه واضطرارها إلى مهادنته في كثير من الأحيان، وبحكم ارتباطاتها ومصالحها. وكانت تلك الفئة، بالإضافة إلى ذلك، غريبة إلى حد بعيد عن روح العصر

وعن مستلزمات التقدّم العصري والبناء الحديث، بحكم ثقافتها التقليدية وسنّها.

ولا حاجة إلى القول إن تلك الفئة الحاكمة كانت تمثّل ـ بالتعبير الشائع اليوم ـ البورجوازية الكبيرة الوطنية، بمحاسنها ومساوئها، مع ارتباطٍ في الوقت نفسه بالإقطاعية.

وقد بدأ الصراع بين هذه الفئة الحاكمة التقليدية وبين الجيل الجديد من المثقفين والسياسيين قبيل نكبة فلسطين. وكانت أهمّ مبررات الصراع ثلاثة: موقف تلك الفئة الفاتر من الانتداب الفرنسي؛ وموقفها من قضية فلسطين في الجامعة العربية ومؤتمراتها وفي المحافل الدولية؛ وموقفها من القضية الاجتماعية والتغيير الاجتماعي.

وبعد نكبة فلسطين اشتدّ هذا الصراع، وغدا موقف الفئة الحاكمة التقليدية موقفاً ضعيفاً بطبيعة الأمور، وقويت شوكة الحركات السياسية الجديدة، ولا سيما تلك التي كانت تمثّل في الأصل نظرة ثورية انقلابية.

وكان أبرز تلك الحركات السياسية الجديدة حزب البعث العربي، الذي خاض قبل النكبة نضالاً قوياً ضد الفئة الحاكمة، والذي تابع نضاله بعد النكبة على نحو أشدّ وأقوى، فكان عاملاً أساسياً في سقوطها وانهيارها.

لقد بدأت أفكار هذا الحزب بالتكوّن منذ الثلاثينيات، ثم أخذ بالتجمّع على شكل حركة، منذ ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام ١٩٤١، واتخذ كياناً حزبياً واضحاً باسم «البعث العربي» منذ أن أقر دستوره في ٦ نيسان (إبريل) عام ١٩٤٧.

وقد أخذ هذا الحزب منذ نشأته يناضل ضد الفئة الحاكمة، ويطالب بقيام حكم شعبي تقدمي. وربط منذ البداية بين نضاله ضد تلك الفئة وبين نضاله من أجل فلسطين، واعتبر الفئات الحاكمة

التقليدية في البلدان العربية كلها عاجزة عن معالجة المسألة الفلسطينية، متواطئة في ذلك مع الاستعمار. وقد أصدر في تلك الفترة مجموعة من البيانات والمقالات التي تندّد بموقف الفئات الحاكمة العربية من قضية فلسطين وتحذّر الشعب العربي من مناوراتها على الصعيد الدولي[1].

وعندما قامت حرب عام ١٩٤٨، اتخذ الحزب في ١٦ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٤٨، قراراً بتجنيد جميع أعضائه في المجهود الحربي، وذهبت قيادته مع فرقة من الحزب إلى فلسطين لتشترك في المعركة.

وبعد النكبة، صعّد الحزب حملته على الأنظمة العربية المسؤولة عن النكبة وعلى الفئة الحاكمة في سورية خاصة. واستجابت الجماهير المثقفة خاصةً لدعوته، وخاضت معه نضالاً قاسياً ضد الفئة الحاكمة. وكان من نتيجة ذلك كله سقوط هذه الفئة على يد الانقلاب العسكري الأول الذي قاده حسني الزعيم عام ١٩٤٩. وقد أفاد ذلك الانقلاب ـ كما نعلم ـ من نقمة الشعب على الفئة الحاكمة آنذاك (ومن أهم عواملها نكبة فلسطين)، وركب المدّ الشعبي الذي قاده حزب البعث، ليحقق عن طريقه انقلابه العسكري.

ثم تتالت الأحداث في سورية، واستمر نضال حزب البعث مع سائر الأحزاب والقوى الشعبية، وتوّج ذلك كله قيام الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨.

٢ ـ **وفي العراق**، كانت الفئة الحاكمة أيام النكبة، فئة سياسية تقليدية أكثر تواطؤاً مع الاستعمار ومع الإقطاع ورأس المال. وكان الصراع قد بدأ بينها وبين الفئات السياسية الأخرى عامة وبين الأجيال

---

(١) يُمكن الرجوع إلى كتاب البعث وقضية فلسطين (١٩٤٤ ـ ١٩٤٨)، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٣.

السياسية الجديدة خاصةً. وقد قاد ذلك الصراع في البداية بعض الأحزاب التقليدية، من مثل حزب الاستقلال وحزب الشعب والحزب الوطني الديمقراطي. وكان من محركات ذلك الصراع حملة هذه الأحزاب على موقف الفئة الحاكمة من الاستعمار البريطاني وعلى موقفها من القضية الفلسطينية. غير أن حياة سياسية جديدة كانت قد أخذت بالتكوّن، على يد الحزب الشيوعي العراقي من جهة، وعلى يد حزب البعث العربي من جهة ثانية (بعد أن امتد نشاط هذا الحزب إلى العراق كما امتد إلى أقطار عربية أخرى). وقد أخذت أفكار حزب البعث في الانتشار في العراق قبل النكبة، غير أن أول فرع للحزب لم يقم في العراق إلاّ بعد النكبة بحوالى أربع سنوات (عام ١٩٥٢).

وقد استمر نضال الأحزاب العراقية، التقليدي منها والجديد، ضد الفئة الحاكمة. وانضافت إلى هذا النضال التنظيمات الشعبية التي تكونت بعد قيام ثورة ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ في مصر، والتي ارتبطت بأهداف تلك الثورة. حتى إذا قامت الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨، أصبح الجو مؤاتياً للانقلاب ضد الفئة الحاكمة، فحدث الانقلاب الذي قاده عبد السلام عارف وعبد الكريم قاسم (في ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨)، والذي أيدته الأحزاب والحركات التقدمية. وقد قضى هذا الانقلاب على الحكم الملكي وعلى الأسرة الهاشمية الحاكمة وأعلن الحكم الجمهوري. ثم حدث ما حدث من انحراف ثورة ١٤ تموز (يوليو) عن أهدافها ومن استئثار عبد الكريم قاسم بالحكم، فتابعت الأحزاب والفئات القومية والتقدمية نضالها، حتى قضت على عبد الكريم قاسم (في ٨ شباط/ فبراير ١٩٦٣). وقد تزعم هذا الانقلاب حزب البعث وأشرك فيه عبد السلام عارف بعد أن أخرجه من السجن الذي وضعه فيه عبد الكريم قاسم. ثم كان ما كان من صراع بين حزب البعث وعبد السلام عارف، انتهى إلى استيلاء

عبد السلام عارف (مع بعض البعثيين المنشقين) على الحكم في ١٨ تشرين عام ١٩٦٣. وأخيراً جاء الانقلاب الذي قام به حزب البعث في (١٧ تموز/ يوليو ١٩٦٨) ضد حكم عبد الرحمن عارف الذي تسلّم الحكم بعد وفاة أخيه عبد السلام عارف في حادث سقوط طائرة.

٣ ـ **وفي مصر** كانت الفئة الحاكمة أيضاً قبيل النكبة وأثناءها، فئة حاكمة تقليدية، يرأسها الحكم الملكي (حكم فاروق وحاشيته)، ويسيطر عليها النظام الإقطاعي. وقد كانت تلك الفئة الحاكمة تواجه قبل النكبة تياراً شعبياً مناوئاً، يأخذ عليها خضوعها للاستعمار الإنكليزي، ووقوعها تحت سيطرة الباشوات وسواهم من الفئات الإقطاعية والرأسمالية، ويندد بالفساد والرشوة اللذين سادا في عهدها. وكانت الحركات الطلابية والشعبية ضد تلك الفئة الحاكمة وضد الاستعمار الذي يوجهها مستمرة متصلة.

ثم زاد في النقمة الشعبية موقف هذه الفئة الحاكمة من القضية الفلسطينية ومناوراتها قبيل حرب عام ١٩٤٨، ثم تخاذلها وتآمرها في أثناء تلك الحرب، مما أدى إلى هزيمة الجيش المصري (مع سواه من الجيوش العربية) بسبب تقصير القيادة السياسية وتواطئها.

في وسط ذلك الجو المتفجّر ولد في الجيش المصري تنظيم ثوري عُرف باسم «تنظيم الضباط الأحرار». وقد حاول ذلك التنظيم ـ كما يذكر الرئيس الراحل عبد الناصر في **فلسفة الثورة** ـ أن يُشارك في القضية الفلسطينية منذ البداية وأن يُساعد المقاومة الفلسطينية ولا سيما عقب صدور قرار تقسيم فلسطين من قبل هيئة الأمم المتحدة (في تشرين من عام ١٩٤٧). بل اتصل هذا التنظيم ببعض ضباط فوزي القاوقجي الذي كان يقود قوات التحرير العربية في المنطقة الشمالية من فلسطين، ليضع معهم «خطة جريئة» (تستهدف تقديم طائرات لتلك القوات).

وعندما قامت حرب عام ١٩٤٨ اشترك معظم الضباط الأحرار في تلك الحرب، وشهدوا مآسيها وخبروا عن كثب مؤامرات الفئة الحاكمة المصرية وألاعيبها، وعاشوا حصار الجيش المصري في منطقة الفالوجا. واشتدّت لديهم نتيجة ذلك كله مرارة الحقد على النظام المصري الفاسد وطغمته الحاكمة، وشعروا ـ كما قال الرئيس الراحل عبد الناصر في فلسفة الثورة ـ بأن «ميدان الجهاد الأكبر هو في مصر»، وأدركوا أن ثمة دوراً كبيراً ينتظر صانعه ويرتقب بطله. ووعى هؤلاء الضباط الأحرار خاصةً، أن وراء الأحداث كلها ـ في فلسطين وسواها ـ يكمن الاستعمار، تلك «القوة الكبرى التي تفرض على المنطقة كلها حصاراً قاتلاً غير مرئي»، وأن المنطقة العربية كلها بالتالي تخضع لمأساة واحدة وعدو واحد، وأن مصيرها لا بد أن يكون واحداً. هذه العوامل مجتمعة أدّت إلى الثورة التي انطلقت في اليوم الثالث والعشرين من شهر تموز (يوليو) عام ١٩٥٢. وكانت تلك الثورة ـ كما جاء في تقرير الميثاق ـ «لا تستهدف استبدال حكم بحكم، وإنما تستهدف إقامة نظام سياسي واجتماعي حرّ، مقام نظام انحلت فيه كل القيم، وطغى فيه الدخلاء والعملاء، وأهدروا كرامة الوطن والمواطن». وأسقطت الثورة النظام الملكي وأقامت النظام الجمهوري، وألغت الأحزاب التي اعتبرتها فاسدة مستغلّة، وقضت على الإقطاع الزراعي، وقاتلت الاحتلال البريطاني، وسارت في طريق التحويل الاشتراكي، وتبنت شعار القومية العربية وناضلت في سبيلها.

وفي ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٦ أُعلن أول دستور لمصر بعد الثورة. وقد أرسى هذا الدستور المبادىء الأساسية للثورة، وأكّد لأول مرة في تاريخ مصر «أن مصر دولة عربية مستقلة ذات سيادة، وهي جمهورية ديمقراطية. والشعب المصري جزء من الأمة العربية».

وفي ٥ آذار (مارس) ١٩٥٨ أعلن الدستور الثاني للثورة في

دمشق، وكان دستوراً مؤقتاً لدولة الوحدة الأولى، الجمهورية العربية المتحدة.

وبعد العدوان الثلاثي على مصر مساء ٣١ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٥٦ ـ على أثر تأميم شركة قناة السويس ـ ألغت حكومة الثورة اتفاقية الجلاء المبرمة مع إنجلترا في ١٩ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٥٤.

وتابعت الثورة إنجازاتها في شتى المجالات، وأبرزها: صفقة الأسلحة التشيكية التي كانت بداية مرحلة جديدة في العلاقات بين العرب والعالم الاشتراكي (وذلك في ٢٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٤)؛ وقانون الإصلاح الزراعي الذي صدر في ٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٦ والذي كان بداية الثورة الزراعية؛ وتأميم قناة السويس كما سبق أن ذكرنا؛ وثورة التمصير (تمصير الشركات والبنوك الأجنبية)؛ وبناء السد العالي؛ وإقامة الوحدة بين مصر وسورية في شباط (فبراير) ١٩٥٨؛ والسير في طريق الثورة الاجتماعية والتصنيع؛ بالإضافة إلى إنجازاتها الكثيرة في الحقل الدولي (ومنها مؤتمر باندونغ في نيسان (إبريل) ١٩٥٥ وإقرار سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز)، وعلى الصعيد القومي العربي (تأييد حركات التحرر في المغرب وتونس والجزائر وليبيا واليمن والخليج العربي وسائر البلدان العربية ومقاومة سياسة الأحلاف).

وقد تجلّت أخيراً مبادىء هذه الثورة ومنطلقاتها في **الميثاق الوطني** الذي أقرّه المؤتمر الوطني للقوى الشعبية في ٢١ أيار (مايو) عام ١٩٦٢. وقد جعل هذا **الميثاق** تصفية العدوان الإسرائيلي على فلسطين هدفاً أساسياً من أهدافه. وقد ورد فيه: «إن إصرار شعبنا على تصفية العدوان الإسرائيلي على جزء من الوطن الفلسطيني هو تصميم على تصفية جيب من أخطر جيوب المقاومة الاستعمارية ضد نضال الشعوب» (الباب العاشر من **الميثاق**: السياسة الخارجية).

هذه أمثلة على الحركات السياسية الجديدة في بعض البلدان العربية التي انتزعت السلطة من القيادة السياسية التقليدية، وعزمت على بناء مجتمع جديد قادر على مواجهة التحديات الصهيونية والامبريالية، وعلى الارتفاع إلى مستوى العصر. وواضح من هذه الأمثلة أن دور القضية الفلسطينية عامة ونكبة فلسطين خاصة في ولادة هذه الحركات وفي نجاحها وفي جذرية مواقفها ومبادئها، كان دوراً كبيراً وأساسياً. وطبيعي أن آثار القضية الفلسطينية ونكبة فلسطين في الأنظمة السياسية العربية لم تقتصر على هذه الدول الثلاث، بل امتدت في الواقع إلى معظم البلدان العربية. ولا يتسع المجال للحديث عن تحوّلات أنظمة الحكم التي قامت في البلدان العربية الأخرى، بتأثير نكبة فلسطين خاصة وإيقاظها للشعب العربي، وبتأثير تفاعل هذه البلدان العربية مع الثورات التي تمت في مصر وسورية والعراق. وحسبنا أن نشير عابرين إلى ثورة الجزائر الكبرى (ثورة الفاتح من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٤)، وإلى ثورة اليمن الشمالية ضد حكم الإمامة (في ٢٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٢)، وإلى ثورة التحرير في اليمن الجنوبية (التي انتهت باستقلال اليمن الجنوبية في ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧)، وإلى ثورة ليبيا التي قضت على الحكم الملكي وعلى النفوذ الأجنبي (ثورة الفاتح من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٩).

ثانياً ـ التحرّر من الاستعمار وإسقاط الأحلاف الاستعمارية

من مظاهر التحوّل السياسي في البلدان العربية بعد نكبة عام ١٩٤٨، إسقاط الأحلاف الاستعمارية. فكما كان طبيعياً أن تقود الهزيمة إلى إسقاط الأنظمة العربية التي اعتبرت مسؤولة عنها، كان من الطبيعي كذلك أن تؤدي إلى النضال ضد الاستعمار الذي لعب دوراً أساسياً في تلك الهزيمة. وهكذا اشتدّت ـ بعد النكبة خاصة ـ حركات التحرّر من الاستعمار في الوطن العربي، واعتبر النضال ضد الاستعمار

جزءاً لا يتجزأ من النضال ضد الصهيونية العالمية والوجود الإسرائيلي.

وقد تجلّى هذا النضال في أشكال عديدة أبرزها:

١ ـ النضال ضد الوجود الاستعماري الذي كان لا يزال قائماً في بعض البلدان العربية بعد النكبة: هذا ما حدث في مصر مثلاً، ولا سيما بعد العدوان الثلاثي ـ كما سبق أن ذكرنا ـ إذ ألغت حكومة الثورة في أول كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ اتفاقية الجلاء التي سبق أن أبرمتها مع إنكلترا في ١٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٤، والتي كانت تنصّ على التحالف بين مصر وبريطانيا لمدة سبع سنوات. وهذا ما حدث في المغرب، حيث قام نضال طويل من أجل إجلاء القوات الفرنسية (قدمت له العون والدعم ثورة مصر خاصةً) انتهى بجلاء هذه القوات عن المغرب في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦١ يوم جلت القوات الفرنسية عن آخر قاعدة جوية لها في مدينة مراكش. وهذا ما حدث في تونس في معركة الجلاء عن بنزرت خاصة، تلك المعركة التي انتهت بجلاء آخر جندي فرنسي عن قاعدة بنزرت هذه في ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٣. ومثل هذا حدث في الجزائر حيث انتهت ثورتها الكبرى التي بدأت في الفاتح من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤، إلى استقلال الجزائر في الخامس من تموز (يوليو) ١٩٦٢ (وهو اليوم الذي يوافق سقوط العاصمة الجزائرية في يد قوات الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠). وفي اليمن الجنوبية أيضاً ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تمّ إجلاء القوات البريطانية في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧. وفي الكويت تمّ جلاء القوات الإنكليزية وإعلان الاستقلال في حزيران (يونيو) عام ١٩٦١. وفي البحرين قام نضال ضد الاستعمار البريطاني استمر من عام ١٩٥٤ إلى عام ١٩٥٦. ومثل هذا النضال قام في عُمان بعد احتلالها من قبل القوات البريطانية عام ١٩٥٥، وتفجّرت الثورة هناك ضد الاحتلال في ١٨ تموز (يوليو) ١٩٥٧. وأخيراً تمت تصفية

القواعد الأجنبية في ليبيا بعد ثورة الفاتح من أيلول (سبتمبر) ١٩٦٩، فجلت القوات البريطانية عن قاعدة طبرق في ٢٥ آذار (مارس) ١٩٧٠، وجلت القوات الأمريكية عن قاعدة هويلس وجميع الأراضي الليبية في ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٩، وارتفع العلم الليبي فوق آخر قاعدة أميركية (في ١١ حزيران/ يونيو ١٩٧٠) وأطلق على قاعدة هويلس اسم الفاتح العربي «عقبة بن نافع» بعد احتلال دام خمسة عشر عاماً.

٢ ـ **النضال ضد الأحلاف الاستعمارية**: لقد حاول الاستعمار أن يتسلل من جديد إلى بعض البلدان العربية بعد جلائه عنها، عن طريق غير مباشر، هو طريق الأحلاف الاستعمارية. وكان واضحاً أن من أهمّ أهداف هذا التسلل تكبيل البلدان العربية بقيود تحول بينها وبين النضال من أجل استرجاع الأرض الفلسطينية المغتصبة. ومن هنا قام نضال عربي ضد هذا التسلل وضد سياسة الأحلاف، انتهى بفشل هذه السياسة والقضاء عليها.

هكذا ناضلت البلدان العربية ضد «الميثاق التركي ـ الباكستاني» الذي أصبح بعد انضمام العراق إليه (في ١٢/ ١/ ١٩٥٥) «حلف بغداد». وقد حاول العراق (أيام عبد الإله ونوري السعيد) أن يضمّ الدول العربية إلى هذا الحلف الاستعماري، فتصدت له القوى العربية الثورية (وعلى رأسها ثورة مصر) واستطاعت القضاء عليه في مهده.

كذلك ناضلت الدول العربية ضد «مشروع أيزنهاور» (فراغ أيزنهاور الشهير) الذي قدمته أميركا وعرضته على البلدان العربية كلها منذ عام ١٩٥٧. وقد أدركت الدول العربية أن هذا المشروع محاولة جديدة في سلسلة المحاولات التي جرّب الاستعمار عن طريقها التسلل إلى البلدان العربية وإقامة مناطق نفوذ له فيها. وأدركت خاصةً أنه محاولة لتغلغل النفوذ الأميركي في منطقة الشرق الأوسط، وأن من أهدافه الأساسية تحقيق أغراض السياسة الأمريكية في ما يتعلق

بإسرائيل، عن طريق الخطوات الآتية: ١ ـ تحويل الأنظار عن خطر إسرائيل؛ ٢ ـ خلق أخطار وهمية من بعض العرب ضد بعضهم الآخر؛ ٣ ـ تقديم سلاح لا يخيف إسرائيل إلى بعض الدول العربية؛ ٤ ـ ربط بعض الدول العربية في نطاق واحد مع إسرائيل، تقوم فيه أميركا بدور التوفيق والتنسيق في الجوانب العسكرية. وقد توّج نضال البلدان العربية ضد هذا الحلف بالقضاء عليه نهائياً. وقد أعلن الرئيس الراحل عبد الناصر فشل هذا المشروع في كلمة له بتاريخ ٢٠/٣/١٩٥٨، قال فيها: «حاول مشروع أيزنهاور أن يلقي مسؤولية الدفاع عن أرض العرب على غير العرب، على أميركا... ولكنه فشل فشلاً ذريعاً، ووزّعوا ٢٠٠ مليون دولار وانتهى الأمر...».

وبعد ذلك طُرحت مشروعات الأحلاف في منطقة المغرب العربي، فتصدت لها الدول العربية الثورية (ولا سيما مصر) وقضت عليها. ولم تكتف الدول العربية برفضها هذا لسياسة الأحلاف، بل طرحت البديل العربي لهذه الأحلاف، ذلك البديل الذي تجلّى في اتفاق «الدفاع العربي المشترك»، وتجلّى من بعد في وحدة مصر وسورية خاصة.

٣ ـ انتهاج سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز: فلقد كان من أبرز نتائج نكبة عام ١٩٤٨ إيمان الدول العربية بأن عليها أن تعتمد، أولاً وقبل كل شيء، على قواها الذاتية، وأن تتحرّر من جميع أنواع التبعية، سواء أكانت للمعسكر الغربي أم للمعسكر الشرقي. وكان هذا الموقف طبيعياً لأسباب عديدة، منها موقف الدول العظمى من القضية الفلسطينية في هيئة الأمم ومجلس الأمن وموافقتها جميعها على قيام دولة إسرائيل.

وقد تجلّت سياسة الحياد الإيجابي هذه لدى حزب البعث العربي منذ طور مبكر، وبرزت في الكثير من بياناته ومقالاته قبيل النكبة وبعدها. ثم اتخذت هذه السياسة شكلاً أوضح بعد مؤتمر باندونغ في

أندونيسيا (١٨ ـ ٢٤ نيسان/ إبريل ١٩٥٥)، ذلك المؤتمر الذي لعبت فيه الثورة المصرية دوراً بارزاً (والذي حضرته ٢٣ دولة من إفريقيا وآسيا). وقد وضعت في هذا المؤتمر المبادىء الأساسية التي اعتبرت نقطة تحوّل في تاريخ حركة التحرر الوطني العالمية وأساساً للتضامن الآسيوي ـ الإفريقي ولسياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز. وقد تمّ اللقاء أثناء ذلك المؤتمر وبعده بين الرئيس عبد الناصر والرئيس نهرو والرئيس سوكارنو والماريشال تيتو والرئيس نيكروما، وكان ذلك منطلقاً لتكوين حلف قوي لدول عدم الانحياز.

وقد رافقت سياسة عدم الانحياز هذه سياسة ترمي إلى توثيق العلاقات مع دول المعسكر الاشتراكي. وتجلّى ذلك للمرة الأولى في صفقة الأسلحة التشيكية التي عقدتها مصر مع تشيكوسلوفاكيا. وأخذت العلاقات تتوثق بعد ذلك مع المعسكر الاشتراكي، في إطار سياسة عدم الانحياز ورفض التبعية، وتجلّت في أرفع صورها في تمويل الاتحاد السوفياتي للسد العالي في مصر، ثم في الدعم المادي والمعنوي الذي أخذ الاتحاد السوفياتي يقدمه للعديد من الدول العربية، وفي وقوفه إلى جانبها أخيراً في معركتها ضد الصهيونية والامبريالية.

ثالثاً ـ تحقيق الوحدة بين مصر وسورية

على أن أبرز التحولات السياسية التي حدثت في البلدان العربية نتيجة لنكبة عام ١٩٤٨ خاصة، قيام أول نواة للوحدة العربية، بين مصر وسورية عام ١٩٥٨. فلقد كانت هذه الوحدة أقوى رد عملي على الوجود الإسرائيلي الدخيل. فهي بالإضافة إلى الآمال الكبيرة التي فتحتها أمام المستقبل العربي كله، ردٌ مباشرٌ على الوجود الإسرائيلي الذي يفصل شمال الوطن العربي وشرقه عن جنوبه وغربه. وهي خطوة عملية ضخمة تهدف إلى تطويق إسرائيل ووضعها بين فكي

كماشة، وتجعل الكيان الإسرائيلي مهدّداً تهديداً فعلياً بالقوى العربية التي تضرب حوله طوقاً محكماً من شماله وجنوبه.

والحق أن الوجود الإسرائيلي جعل من المسلمات الأولى في عمله السياسي تفتيت الوجود العربي والحيلولة دون تضامنه وتكامله، والقضاء على أكبر عائق ضد استقرار إسرائيل وتمكّنها في الأرض، نعني وجود أمة عربية واحدة مؤمنة بمصيرها المشترك متكافلة في سبيل ذلك المصير. ومن هنا كانت الوحدة بين مصر وسورية أعنف تحدٍّ واجهه الكيان الإسرائيلي، وواجهته القوى الامبريالية من ورائه. ولهذا عبأت إسرائيل وعبأت الامبريالية كل قواها وإمكاناتها في سبيل القضاء على هذه البذرة الخطيرة التي تنقض الوجود الإسرائيلي من أساسه.

هذه الحقيقة هي التي جعلت الجماهير العربية في البلدان العربية كلها تلتف حول الوحدة المصرية ـ السورية وتؤيدها وتنظر إليها نظرتها إلى خطوة أولى هامة في طريق الوحدة العربية الشاملة، وترى فيها البداية الجدية لتحرير فلسطين.

وقد أدى قيام الوحدة ـ كما نعلم ـ إلى تغيّرات في الحياة السياسية في معظم البلدان العربية، وكانت بمثابة بؤرة التفجّر والتحرّك نحو تغير جذري في حياة الأمة العربية. فبعد قيامها بقليل قامت الثورة في العراق، واشتدت الحركات التحريرية في معظم البلدان العربية. ولولا أن تمكنت المؤامرات الصهيونية والامبريالية من القضاء على تلك الوحدة ـ مستفيدة من بعض الأخطاء التي وقعت فيها ـ لسار المدّ العربي صعداً، يحمل معه كل مفاجآت التحرّر والتقدّم، ويحمل معه خاصة إمكانات تحرير فلسطين.

رابعاً ـ التركيز على أهمية بناء الجيوش الوطنية

طبيعي أيضاً أن تؤدّي هزيمة عام ١٩٤٨ إلى الاهتمام ببناء

الجيوش العربية القادرة على محو الهزيمة وعلى تحرير الأرض الفلسطينية المغتصبة. وهكذا برز دور الجيوش العربية في المرحلة التي تلت النكبة، وأصبح تسليحها وتدريبها وإعدادها للمعركة هدفاً أساسياً من أهداف معظم الحكومات العربية. وقد تمّ ذلك خاصة بفضل التحرّر من حصار التسلّح الذي كانت تفرضه الدول الغربية، وبفضل التوجّه إلى المعسكر الشرقي كمصدر آخر أساسي من مصادر السلاح. وفي الوقت نفسه قام جهد هائل في معظم الدول العربية من أجل توسيع الجيوش الوطنية وتطويرها، تجلّى في رصد الجزء الأكبر من ميزانيات هذه الدول للجهد الحربي.

يُضاف إلى هذا أن تركيب الجيوش العربية أخذ يتغيّر ويتطوّر، فدخلت إليها أعداد واسعة تنتمي إلى الفئات الشعبية وتمثّل التيارات التقدمية.

وقد أدّى هذا كله إلى تعاظم الدور السياسي لهذه الجيوش - بالإضافة إلى دورها العسكري - وإلى دخولها كعنصر هام من عناصر التغيير السياسي في كثير من البلدان العربية. صحيح أن الكثير من الانقلابات التي قامت على يد الجيوش العربية كانت تعبيراً عن مدّ شعبي وإرادة شعبية. غير أن من الصحيح، في الوقت نفسه، أن هذه الجيوش - بحكم بنيتها الجديدة وبحكم الأحداث الهامة من حولها - بدأت تعتبر نفسها بمثابة الحامية للإرادة الشعبية وللاتجاهات التقدمية في أكثر من بلد عربي.

ولئن كانت الثورة في مصر قد نجحت إلى حد بعيد في جعل الجيش مجرد درع للثورة، فإن دخول الجيش إلى حلبة السياسة المباشرة كان واضحاً في بلدان عربية أخرى، كسورية والعراق. وإذا كنا نقرأ في الميثاق الوطني الذي أُقرّ في مصر في ٢١ أيار (مايو) ١٩٦٢ أن «أعظم ما في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أن القوات التي خرجت

من الجيش لتنفيذها لم تكن هي صانعة الثورة، وإنما كانت أداة شعبية لها. . .»، فإن هذه الحقيقة التي تنطبق على ما حدث في بعض البلدان العربية، لم تجد سبيلها إلى التطبيق دوماً ولم تؤدِ فيها جميعها إلى بقاء الجيش حامياً للثورة، بل جعلت منه عنصراً رئيسياً في مجرى الحياة السياسية في كثير من الأحيان.

وهكذا كانت لبروز دور الجيوش العربية بعد نكبة فلسطين آثاره الإيجابية الواضحة، كما كانت له كذلك آثار سلبية في بعض البلدان العربية. وأبرز هذه الآثار السلبية توالي الانقلابات العسكرية وتعثّرها في كثير من الأحيان (كما حدث مثلاً في انقلاب حسني الزعيم وانقلاب سامي الحنّاوي وانقلاب أديب الشيشكلي في سورية، وفي انقلاب عبد الكريم قاسم في العراق). ومن هذه الآثار السلبية كذلك تقليص دور المنظمات الشعبية ودور الجماهير في قيادة البناء الاجتماعي وفي العمل لتحرير فلسطين. ومن آثارها السلبية أيضاً التضييق على نشاطات حركة المقاومة الفلسطينية في كثير من الأحيان.

خاتمة

كانت نكبة فلسطين، إذن، محرّضاً حيّاً أثار الوجود العربي وأيقظه، ودفعه إلى إنعام النظر في ذاته، ليكشف عن علله وأدوائه وليعيد بناءه بناء جديداً. وقد فجّرت هذه النكبة طاقات هائلة، انطلقت منها حركات سياسية جديدة، تبحث عن أسس أبقى وأفضل للتنظيم السياسي، وتعمل على بناء كيانات قادرة على مواجهة التحدّي الإسرائيلي وما وراءه.

وقد تجلّت هذه التحوّلات التي خضعت لها الأوضاع السياسية العربية بعد النكبة في مظاهر عديدة شملت شتى جوانب النظام الاجتماعي والاقتصادي والعسكري. وكان أبرز هذه التحولات

تحوّلات أربعة:

أولها: انتزاع السلطة من القيادات التقليدية التي اعتبرت مسؤولة عن النكبة، وظهور أجيال حاكمة جديدة عبّرت في معظم الأحيان عن روح ثورية وعن نظرة انقلابية في معالجة مشكلات الحياة السياسية عامةً ومشكلة فلسطين خاصةً. وتجلّى لدى هذه الأجيال السياسية الجديدة الإيمان بضرورة الأخذ بالتغيير الشامل الكامل لبنية الحياة العربية في شتى جوانبها.

وثانيها: محاربة الاستعمار وإسقاط الأحلاف الاستعمارية، بوصفها الأداة الجديدة لتكبيل الوجود العربي والحيلولة دون انطلاقته، وبوصفها أحد سُبُل الصهيونية والإمبريالية لاحتواء التعبئة العربية ضد إسرائيل ولمنعها من التحرك.

وثالثها: تحقيق الوحدة بين مصر وسورية، كردّ مباشر وعملي على شق الكيان الإسرائيلي للوجود العربي، وكأداة فعّالة لضرب طوق عسكري منيع حول إسرائيل، وكمنطلق أساسي نحو بناء الكيان العربي الواحد القادر على التحرير.

ورابعها: الاهتمام ببناء الجيوش الوطنية، وبروز دورها في الحياة العربية، وما رافق ذلك من ظهور طبقة عسكرية في البلدان العربية دخلت حلبة العمل السياسي المباشر.

ولا شك أن هذه الآثار التي خلّفتها نكبة فلسطين في البلدان العربية قد التقت مع جملة النضال العربي ضد التخلّف والاستعمار الذي بدأ قبل النكبة بسنوات، كما التقت مع بواكير التغيير الجذري في الحياة السياسية العربية التي حدثت بسبب الرغبة في تجاوز التخلّف واللحاق بالعصر من جهة، وبسبب القضية الفلسطينية نفسها التي كانت تحرّك الوجود العربي منذ سنوات قبل النكبة من جهة ثانية.

وقد أخذت هذه التحوّلات في الحياة السياسية تشتد وتتعمق يوماً

بعد يوم، إثر النكبة، ولا تزال تفاعلاتها تتعاظم وتتكامل، لا سيما بعد أن انضاف إلى النكبة العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ونكسة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧.

وقد آتت هذه التفاعلات جميعها بعض أُكلها وثمارها، في الوقفة الرائعة التي وقفتها الأمة العربية والجيوش العربية يوم السادس من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣. ولا شك أنها ستزداد غنىً وخصباً وعطاءً فيما بعد، لتؤدّي في النهاية إلى تحرير الأرض الفلسطينية من العدوان الصهيوني.

وبهذا يصحّ أن نقول إن النكبات الكبرى تحمل في ثناياها وصلبها مقوّمات تجاوزها، وإنها محمّلة ببذور حياة جديدة ومستقبل جديد.

الفصل الرابع

أثر حرب ١٩٤٨ في الأدب والفكر العربي قبل ١٩٦٧

مقدمة

إذا كان الأدب والفكر مرآة حياة الشعوب دوماً، فمن الطبيعي أن يبرز دورهما بروزاً أكبر في المراحل الحاسمة والعصيبة من حياة تلك الشعوب.

ونكبة فلسطين، كما سبق أن رأينا، وضعت الوجود العربي كله موضع التساؤل والبحث والتحليل والتجريح. وقد تولّى هذه المهمة القلم العربي، قصةً وشعراً وفكراً. ولعلّ هذا القلم شعر بعد النكبة بدوره الكبير والمتعاظم، حين اكتشف وراء تلك النكبة عجزاً في مستوى الحياة العربية عامةً وفي مستوى العطاء الفكري والأدبي خاصةً. بل لعلّه راوده شعورٌ حادٌّ بأن على الأدب والفكر أن ينزل إلى الساحة بكل قواه وإمكاناته، وأن يتولى قيادة السفينة بنفسه بعد أن فشلت الأنظمة السياسية في قيادتها.

ذلك أن الأدباء والمفكّرين في البلدان العربية أدركوا أن الهزيمة كانت مجرد حادثة لها جذورها وأصولها في أعماق الحياة العربية، وأنها لا تعدو أن تكون تعبيراً عن أزمة حضارية أعمق يُعاني منها الوجود العربي بأكمله. ومن هنا وجدوا أن طريق الخلاص هي تحقيق انقلاب كامل شامل في بنية ذلك الوجود، وأن ذلك الانقلاب الشامل

والكامل ينبغي أن ينطلق من نظرةٍ جديدة وفلسفةٍ جديدة وفهم جديد لواقع الحياة العربية ومستقبلها. ولا يتمّ ذلك إلاّ إذا لعبَ الأدب والفكر دور المحرّض والباعث لمثل هذه النظرة الجديدة، وإلا إذا قدّم هذا الأدب والفكر المهاد اللازم لخلق مواقف نفسية جديدة وتفكير جديد ورؤى كونية جديدة.

وهكذا ولد بعد النكبة عطاءٌ أدبي وفكري حاول أن يغوص إلى ما وراء النكبة الظاهرة وأن يحلل بواعثها العميقة وأسبابها البعيدة، كما حاول أن يخلق لدى الإنسان العربي اتجاهات نفسية وفكرية قادرة على تجاوز النكبة.

ومن العسير أن نحيط بكامل النتاج الأدبي والفكري الذي اضطلع بعد النكبة بدور المحلّل لعواملها والمبشّر بعالم جديد يتجاوزها. وحسبنا أن نشير ـ في إيجاز شديد ـ إلى أهمّ ملامح هذا النتاج وأبعاده. ولهذه الغاية سنتحدث أولاً عن النتاج الأدبي بعد النكبة، بعد أن نقسّمه إلى نوعين أساسيين: القصة والمسرحية من جهة، والشعر من جهة ثانية. ثم ننتقل إلى الحديث عن النتاج الفكري الذي اتخذ غالباً طابع النقد والتحليل والذي حاول أن يستخلص من النكبة أهمّ دروسها، في سبيل بناء الحياة العربية بناءً جديداً قادراً على تجاوزها.

أولاً ـ أثر حرب عام ١٩٤٨ في القصة والمسرحية[١]

ظهرت بعد النكبة مجموعة كبيرة من القصص وعدد محدود من

---

(١) نستقي بعضاً مما سيرد في تحليلنا للقصة والمسرحية من أطروحة باللغة الإنكليزية، قدّمها هـ. دوغلاس رولاند لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة ميتشيغان في الولايات المتحدة. وهي غير منشورة: H. Douglas Rowland: *The Arab Israeli Conflict as Represented in Arab Fictional Literature*, Michigan, University Microfilms, 1971.

المسرحيات، حاولت جميعها أن تعكس ما جرى في حرب عام ١٩٤٨ وأن تتحدّث عما رافقها من أحداث، وأن تُحلّل العوامل الرئيسية التي أدّت إلى الهزيمة فيها: كالنشاط البريطاني والتآمر البريطاني مع الصهيونية، وكتقصير الأنظمة العربية والجيوش العربية وخيانات بعضها، وكالأساليب الهمجية البربرية التي استخدمها اليهود . . .

١ ـ القصّة:

أما القصّة فقد أخذت حيناً شكل القصّة الطويلة (أو الرواية) وأخذت حيناً آخر شكل القصّة القصيرة.

ولعل أبرز القصص الطويلة(الروايات) التي ظهرت في أعوام مختلفة بعد النكبة، القصص التالية:

١ ـ **لاجئة** لجورج حنا (١٩٥٢).

٢ ـ **طريق العودة** ليوسف السباعي (١٩٥٨).

٣ ـ **بيت وراء الحدود** لعيسى الناعوري (١٩٥٩).

٤ ـ **ستة أيام** لحليم بركات (١٩٦١).

٥ ـ **دقت الساعة يا فلسطين** ليوسف سالم (١٩٦٢).

٦ ـ **رجال في الشمس** لغسّان كنفاني (١٩٦٣).

٧ ـ **بنفسجة للعائد** لإيليانا صنبر (١٩٦٥).

٨ ـ **ما تبقّى لكم** لغسّان كنفاني (١٩٦٦).

٩ ـ **جراح جديدة** لعيسى الناعوري (١٩٦٧).

١٠ ـ **عصافير الفجر** لليلى عسيران (١٩٦٨).

١١ ـ **عودة الطائر إلى البحر** لحليم بركات (١٩٦٩).

١٢ ـ **ناسف الجسور** لعاطف أحمد حلوة (١٩٦٩).

أما القصص القصيرة التي تتحدث عن النكبة فمن العسير أن

نحيط بها. وحسبنا أن نشير إلى أن أبرز كتّابها هم: أحمد سويد ـ سهيل إدريس ـ عبد السلام العجيلي ـ سليمان فيّاض ـ محمود الريماوي ـ إحسان عبد القدوس ـ وجيه رضوان ـ سامي عطفة ـ محمد فريد أبو حديد ـ أمين فارس ملحس ـ عبد الحميد جودة السحار ـ جان ألكسان ـ عدنان الداعوق ـ بديع حقي ـ أديب نحوي ـ ألفة الأدلبي ـ حليم بركات ـ يوسف السباعي ـ حنفي بن عيسى ـ عبد الهادي البكار ـ محمد حاج حسين ـ محمود السمرة ـ إسحق موسى الحسيني ـ نجوى قعوار ـ سمير تنّير ـ فارس زرزور ـ فاروق بيضون ـ محمد جلال عناية ـ سميرة عزام ـ إنعام الجندي.

وإذا كان لا بد من الإشارة إلى أبرز عناوين بعض القصص القصيرة الهامّة، فحسبنا أن نشير إلى الأقاصيص الآتية (على سبيل المثال لا الحصر):

١ ـ «بعيداً عن الأرض» و«سوق الفتافيت» لإحسان عبد القدوس.

٢ ـ «العراء» و«الليل والأسلاك» و«شيخ الكرامة» لسهيل إدريس.

٣ ـ **دم على الجدار** لمحمد جلال عناية (مجموعة قصص).

٤ ـ **أرض البرتقال الحزين وعالم ليس لنا وعن الرجال والبنادق** لغسان كنفاني (مجموعات قصصية).

٥ ـ «إننا عائدون» لمحمد فريد أبو حديد.

٦ ـ «خبز الفداء» و«في الطريق إلى برك سليمان» و«زغاريد» لسميرة عزام.

٧ ـ «بنادق في لواء الجليل» لعبد السلام العجيلي.

٨ ـ «فوق التراب» لعبد الهادي البكّار.

٩ ـ «الإنسان والأرض والموت» لسليمان فيّاض.

١٠ ـ «آمال كبيرة» لإنعام الجندي.

٢ ـ المسرحية:

أما المسرحيات التي ظهرت بعد النكبة، فعددها محدود نسبياً، لقلّة عناية الكتاب العرب بهذا النوع من الأدب. على أن ما ظهر من هذه المسرحيات بعد حرب عام ١٩٤٨ يكشف، في جملته، عن مستوى أدبي رفيع. وهو يتناول غالباً ـ كالقصّة ـ الأحداث التي رافقت المعركة والعوامل التي أدّت إلى النكبة. ونورد فيما يلي أبرز تلك المسرحيات (وفق الترتيب الزمني لظهورها):

١ ـ **تسع بنادق فقط والفدائي الصغير حسن** لخليل هنداوي.

٢ ـ **محاكمة إسرائيل أمام المجلس الأعلى للآلهة** لمحمد رفعت.

٣ ـ **من خلف المعركة** لعلي أحمد باكثير.

٤ ـ **لا تدفنوا الموتى** لنديم خشافة.

٥ ـ **الأب والابن** لسميح يانس.

٦ ـ **الهدف الكبير** لجميل الجبوري.

٧ ـ **الساقية** ليوسف العاني.

٨ ـ **زهرة من دم** لسهيل إدريس.

٣ ـ أهمّ الموضوعات التي عالجتها القصة والمسرحية:

وإذا كان من المتعذر تحليل هذا النتاج القصصي والمسرحي الواسع، فمن الممكن أن نشير إلى أهمّ الموضوعات التي تعرّض لها. والحق أن هنالك عدداً من الموضوعات الرئيسية التي طرقتها معظم تلك القصص والمسرحيات، والتي تحلّقت حولها أحداثها. وفي وسعنا أن نُجملها في الموضوعات الثمانية الكبرى الآتية:

١ ـ دور بريطانيا في حرب عام ١٩٤٨ وتآمرها على العرب

والعون الذي قدمته للصهيونية.

٢ ـ ضرب القوى الصهيونية للمدن والقرى العربية، وأعمالها الوحشية (في دير ياسين وكفر قاسم وسواهما) وطردها السكان العرب من ديارهم.

٣ ـ سلوك الزعماء العرب قبل الحرب وأثناءها وبعدها، والأخطاء التي اقترفوها والخيانات التي ارتكبها بعضهم.

٤ ـ سلوك قادة الجيوش العربية وخياناتهم.

٥ ـ حرب العرب بأسلحة ناقصة أو فاسدة ونفاد ذخيرتهم.

٦ ـ وصف اليهود وفظاظتهم ونزعاتهم السادية، وظواهر الانحلال الخلقي والجنسي عندهم، ومجونهم واستهتارهم، وأساليب المخادعة والمراوغة والمكر السائدة لديهم.

٧ ـ وصف اللاجئين العرب وبؤسهم، والتعبير عمّا عندهم من مرارة وحقد، والحديث عن غربتهم وشعورهم بالعزلة، وشرح الأسباب التي أدّت إلى هجرانهم لديارهم.

٨ ـ التطلّع إلى طريق الخلاص ووصف الآمال العربية ونظرة العرب إلى المستقبل.

وقد كان أبرز من تعرّض للموضوع الأول (دور بريطانيا): جورج حنا في رواية **لاجئة** ـ وسميرة عزّام في قصّة «خبز الفداء» ـ وإيليانا صنبر في رواية **بنفسجة للعائد** ـ وسميح يانس في مسرحية **الأب والابن** ـ ويوسف سالم في رواية **دقّت الساعة يا فلسطين**.

أما الموضوع الثاني (أعمال اليهود الوحشية)، فقد طرقته قصص عديدة أبرزها: رواية **بيت وراء الحدود** لعيسى الناعوري ـ وقصّة «الأسطر الحمراء» لأمين فارس ملحس ـ ورواية **لاجئة** لجورج حنا ـ ورواية **دقت الساعة يا فلسطين** ليوسف سالم ـ وقصّة «ورقة من الرملة» لغسان كنفاني ـ والمجموعة القصصية **دم على الجدار** لمحمد جلال

عناية ـ ومسرحية **تسع بنادق فقط** لخليل هنداوي ـ وقصّة «إنّا عائدون» لمحمد فريد أبو حديد ـ ورواية **ستة أيام** لحليم بركات.

وكان أبرز من عني بالموضوعين الثالث والرابع (سلوك الزعماء العرب وسلوك قادة الجيوش العربية ولا سيما غلوب باشا): جورج حنا في رواية **لاجئة** ـ وحسين قاسم في قصّة «الغرباء» ـ ويوسف سالم في رواية **دقت الساعة يا فلسطين** ـ وسليمان فياض في قصّة «الإنسان والأرض والموت» ـ وخليل فخر الدين في قصّة «ولكننا لم نحارب» ـ وحليم بركات في رواية **عودة الطائر إلى البحر** ـ وغسان كنفاني في مجموعته القصصية **أرض البرتقال الحزين**.

أما الموضوع الخامس (السلاح ونقصه وفساده) فأبرز من تعرّض له: غسان كنفاني في قصّة «الرجل الذي لم يمت» ـ وعبد السلام العجيلي في قصة «بنادق في لواء الجليل» ـ وخليل هنداوي في مسرحية **تسع بنادق فقط** ـ وسميرة عزام في قصّة «الطريق إلى برك سليمان» ـ وعيسى الناعوري في رواية **جراح جديدة** ـ ويوسف سالم في رواية **دقت الساعة يا فلسطين**.

وقد توقف معظم الكتّاب طويلاً عند الموضوع السادس (صفات اليهودي)، لملاءمة هذا الموضوع لطبيعة القصة. وأشاروا في هذا المجال إلى صفاتٍ خمس بارزة:

١) فظاظة اليهودي ووحشيته؛
٢) الانحلال الخلقي والجنسي لدى اليهودي؛
٣) مجون اليهودي واستهتاره وقحّته؛
٤) مراوغة اليهودي وخداعه ومكره؛
٥) جبن اليهودي.

وقد تعرض لهذه الجوانب المختلفة في شخصية اليهودي كتّابٌ عديدون أبرزهم: يوسف سالم في رواية **دقت الساعة يا فلسطين** ـ

وحليم بركات في رواية **ستة أيام** وفي قصّة **عودة الطائر إلى البحر** ـ وإيليانا صنبر في رواية **بنفسجة للعائد** ـ وعاطف أحمد حلوة في رواية **ناسف الجسور** ـ ويوسف عاني في **الساقية** ـ وغسان كنفاني في قصة «شيء لا يذهب» وقصّة «منصور الذي ذهب إلى صفد» ـ وعدنان الداعوق في قصّة «أرض عطشى» ـ ومحمد جلال في قصّة «الطاعون» ـ وعوض شعبان في قصة «اليهودي وزجاجة الكونياك» ـ وسليم اللوزي في قصّتي «البطل» و«رسالة من فلسطين» ـ وسهيل إدريس في مسرحية **زهرة من دم** ـ وأحمد سويد في قصة «عندما تشرق الشمس من المغيب» ـ وليلى عسيران في رواية **عصافير الفجر** ـ وسليمان فيّاض في قصّتي «الإنسان والأرض والموت» و«جسر حيّ».

أما الموضوع السابع (وصف اللاجئين) فقد لقي اهتماماً خاصاً من معظم الكتّاب، لأهميته ولملاءمته لطبيعة القصة. وقد أشار فيه الكتّاب إلى أربعة جوانب أساسية من حياة اللاجئين الفلسطينيين:

١) وصف حياة اللاجئين في الخيام، ووصف بؤسهم وجوعهم ومرضهم.

٢) وصف المرارة التي يُعاني منها اللاجئون والحقد الذي يغلي في أعماقهم والأهداف التي يتمسكون بها والتي تحملهم على المجالدة والصمود.

٣) وصف غربة اللاجئين عن وطنهم، وما يلقونه في بعض البلدان العربية المضيفة من معاملة شاذة تزيد في شعورهم بالغربة.

٤) تعليل أسباب مغادرة اللاجئين لديارهم، والعوامل التي أدّت إلى نزوحهم (وعلى رأسها الأعمال الوحشية والبربرية التي قام بها اليهود).

وقد تعرّض لهذا الموضوع الهامّ في جوانبه المختلفة العديد من كتّاب القصة أو الرواية أو المسرحية. ومن أبرز هؤلاء:

جورج حنا في رواية **لاجئة** ـ وإنعام الجندي في قصّة «آمال كبيرة» ـ وإحسان عبد القدوس في قصّة «سوق الفتافيت» ـ وغسان كنفاني في قصة «الصغير يذهب إلى المخيّم» ـ وسميرة عزام في قصّة «لأنه يحبّهم» ـ وأحمد العدناني في مجموعته القصصية **حبة البرتقال** ـ وعيسى الناعوري في رواية **بيت وراء الحدود** وفي قصّة «طريق الشمس» ـ وغسان كنفاني في رواية **ما تبقّى لكم** وفي مجموعته القصصية **أرض البرتقال الحزين** وفي رواية **رجال في الشمس** ـ وحيدر حيدر في قصّة «الميراث» ـ وحليم بركات في قصة **عودة الطائر إلى البحر** ـ وعيسى الناعوري في قصّة «طريق الشوك».

أما الموضوع الثامن والأخير (التطلّع إلى الخلاص) فيكاد يكون منبثاً في معظم الكتابات التي أشرنا إليها. وأبرزها في هذا المجال: **لاجئة** لجورج حنا ـ **وعودة الطائر إلى البحر** لحليم بركات. . . **وعصافير الفجر** لليلى عسيران ـ **وأرض البرتقال الحزين** لغسان كنفاني ـ **ودقت الساعة يا فلسطين** ليوسف سالم ـ **وزهرة من دم** لسهيل إدريس ـ **وطريق العودة** ليوسف السباعي.

ثانياً ـ شعر النكبة[1]

وجد الشعر في النكبة ومآسيها وويلاتها، وفي لاجئيها المشرَّدين الهائمين على وجوههم، وفي برد الكهوف والخيام البالية، مورداً ثرّاً لأغانيه الحزينة، ومادةً خصيباً لحنينه وأساه. ووجد في الأحداث التي رافقتها، وفيما صحب تلك الأحداث من مؤامرات استعمارية ومهازل عربية، موقداً يذكي به حقده على صانعي الأحداث، ولهيباً يصلي بنيرانه أولئك الراقصين على الأشلاء. وفوق هذا وذاك، وجد الشعر

(١) كتب الدكتور صالح الأشتر كتاباً قيّماً عنوانه في شعر النكبة (نشر جامعة دمشق، ١٩٦٠)، ومنه نستقي كثيراً من حديثنا عن شعر النكبة.

في تباشير اليقظة العربية التي بدأت تتفجر كالضياء، معلنة عن عزم الشعب العربي على التحرّر وعلى تحطيم القيود، مسرحاً لنفحات متفائلة ونسمات منعشة حمّلها إشراقة الغد وأمل المستقبل.

ومن العسير هنا أيضاً أن نحيط بجملة الشعر الذي ظهر بعد النكبة وعبّر عن آلامها وآمالها. وحسبنا أن نتحدث عن أبرز معالمه، متوقفين عند الموضوعات الأربعة الأساسية التي التفت إليها هذا الشعر:

١) ذكريات مشاهد النكبة السود، والحملة على صانعيها، والتشهير بالخيانات التي رافقتها، والتنديد بالاستعمار والمستعمِرين.

٢) وصف العربي الشريد في الآفاق بعد النكبة، والوقوف عند خيام اللاجئين وعند الشقاء الرابض فيها، يبكونها ويستبكونها ويقصّون لوعة أحزانها وخفقة آلامها ورعشة جراحها.

٣) الحنين إلى الديار، ديار فلسطين، وإلى دنيا من الذكريات الحلوة فيها، ومناجاة بلابلها ودوحها، والتشوّق إلى مائها وهوائها.

٤) التفاؤل في المستقبل، والأمل في العودة، والثقة بالنفس العربية العازمة على تحدّي الدولة المغتصبة.

١ ـ مشاهد النكبة والحملة على صانعيها:

أما الموضوع الأول فقد وقف عنده العديد من الشعراء، ولا سيما في الطور الأول الذي تلا النكبة مباشرة. فمنذ الأيام الأولى للنكبة ارتفع صوت الشاعر عيسى الناعوري مندّداً بأهوال ذلك اليوم الأسود، في قصيدة مطلعها:

يا لعنة الزمن البغيـ ـض وأسوأ الأيام ذكرى

وارتفع صوت الشاعر خليل زقطان يتحدث عن «المسرحية الحربية» قائلاً:

وهنا انظري تلك الجيو ش السبع والعدد القوية
أمّت ميادين النضا ل تصول كاذبة الحميّة
وتراجعت من بعد ما ضمنت نجاح المسرحية

وكان صوت الشاعر أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) أعنف الأصوات وأشدّها تنديداً بزمرة الحكّام. وقد عبَّر عن ذلك في قصائد عديدة. ومن أقواله في هذا المجال:

لنا دول ليتها لم تكن مطايا وأذناب مستعمِرين
وجامعة لم تزل دميةً يخفّ إليها الرجيم اللعين

ومن أقواله أيضاً:

يا رفاق الدهر هل شرّدكم في الورى غدر عدو أم محبّ
زعماء دنّسوا تاريخكم وملوك شرّدوكم دون ذنب
وجيوش غفر الله لها سلّمت أوطانكم من غير حرب
دول تحسبها شرقية وإذا أمْعَنْتَ فالحاكم غرب

ويحمل شعراء آخرون على الدول المستعمرة ويحمّلونها مسؤولية المأساة. وفي هذا يقول الشاعر هارون هاشم رشيد (شاعر العودة)[١]:

لولا خداع الإنكليز وغدرهم ما عاش في أرض الأسود كلاب
والغرب! يا للغرب إن قدومه نحو البلاد مصيبة وخراب

وفي ذلك أيضاً يقول الشاعر خليل زقطان:

هي خطة وحشية لا ترفق الغرب واضعها وقومك طبّقوا
سنظل أشباه العبيد يضلّنا هذا «الحليف» بفنه ويفرّق

---

(١) من دواوينه: مع الغرباء ـ عودة الغرباء ـ غزة في خط النار ـ أرض الثورات.

ويشتد هذا اللحن مع الزمن ويقوى، ويطرق الشعراء من شتى البلدان العربية ـ إلى جانب الشعراء الفلسطينيين ـ هذا الباب واحداً بعد واحد. فنجد الشاعر الدمشقي أنور العطار يبكي مصرع البلد الشهيد في قصيدة يقول فيها:

فلسطين يا دنيا الهناءة والحب   ويا مهبط الإلهام والحلم العذب

ونجده يثور لموقف الجيوش العربية المخزي يوم وقع حصار الجيش المصري في الفالوجة، فيقول (في قصيدة ألقاها تكريماً للشاعر إيليا أبي ماضي):

أيخوض القتال جيش وحيد   وجيوش العرباء كالرقباء

وتتحدث الشاعرة الفلسطينية سلمى الخضراء الجيّوسي في قصيدة أسمتها «الشهيد المهجور»، عن مذبحة دير ياسين وعن القبر الكبير الذي دُفن فيه القتلى دفناً جماعياً:

رعته الشمس والأنداء وارتاحت على كبر بقاياه
ونامت دون يوم الحزن عيناه
لريح الغرب تلفح رأسه العاري
لوقد الشمس تحرقه
وتغرقه
بموج لهيبها الناري.

ويعلو صوت شاعر النكبة يوسف الخطيب[1] ويبعث بصرخات متمردة تنبثّ في شتى جنبات شعره العاصف. ومن أشعاره يصف قلقه وضياعه أمام هول المأساة:

---

(١) من أبرز دواوينه: العيون الظماء للنور وعائدون. وقد ولد الشاعر في قرية من قرى مدينة الخليل عام ١٩٣١، ثم انتقل إلى دمشق بعد عام ١٩٥٠.

كم تنزّت بين الضلوع كلومه   والقذى كأسه فأين نديمه

ضاع فردوسه وضاع جحيمه

ومن صرخاته وثورته على استكانة الشعوب في الشرق وخضوعها الذليل للقوة، قصيدة في ديوان العيون الظماء للنور يقول فيها:

أين «بترولنا» أَنحرَق فيه   ليعيش الأسياد والأمراء

أتمنّى لو كنت عود ثقاب   في حقول البترول يوماً يُضاء

أتمنّى للشرق يغدو رماداً   من لهيبي وتحرق الصحراء

ويثور الشاعر عيسى الناعوري ويبكي مأساة بلاده ولوعتها، فيرسل بعد الهدنة «صرخة أسى» ينحو فيها باللائمة على الحكام المتخاذلين، فيقول:

سقطت يضرّجها النجيع على الثرى   ومضت لحكم كان في الأحلام

وتمزّقت بيد الخيانة والخنا   أعلامها الغراء وهي دوامي

وفي عام ١٩٥٣ يصيح صيحة اليائس الساخر:

دعني من الأحلام يا صاحبي   وأهل الشعارات والنصر

فليس في قومي ذو عزة   تدفعه النصرة للثأر

. . .

قاداتنا ثاراتهم بينهم   ليس لهم عند العدا ثار

فإنْ دعا المجد لساحاته   كلّلهم يوم الوغى العار

هم كلهم أذناب مستعمر   عبّاد كرسيّ ودولار

من أجلها ضحّوا بأوطاننا   وشرّدوا أمة أحرار

ويحكي عمر أبو ريشة حكاية مصرع المجد عند تربة المسيح، في قصيدة يقول فيها:

قف على تربة المسيح وشاهد مصرع المجد فوق طهر الرمال

ويغضب أبو ريشة عندما يسمع بمذلة العرب وانكسارهم في حرب عام ١٩٤٨، فيكتب قصيدته الشهيرة يدين الحكام الجناة ويعنّفهم، وفيها:

أمتي! كم صنم مجّدته لم يكن يحمل طهر الصنم
لا يُلام الذئب في عدوانه إن يك الراعي عدوّ الغنم
فاحبسي الشكوى فلولاك لما كان في الحكم عبيد الدرهم

وفيها يقول تلك الأبيات التي سارت بها الألسن وحملها الركبان، يخاطب بها أمته ويثور على تخاذل حكامها:

ودَعي القادة في أهوائها تتفانى في خسيس الغنم
ربَّ «وامعتصماه» انطلقتْ ملء أفواه البنات اليتّم
لامست أسماعهم لكنها لم تلامس نخوة المعتصم؟

ويأتي العيد بعد النكبة عام ١٩٤٩ فيلقاه الشاعر الكبير أبو ريشة حزيناً ثائراً، في قصيدة مطلعها:

يا عيد ما افترّ ثغر المجد يا عيد فكيف تلقاك بالبشرى الزغاريد

وفيها يقول معرِّضاً بمن صنع النكبة:

يا للشعوب التي قادت أزمّتها على الليالي عباديد رعاديد
فأطمعتْ كل باغٍ في كرامتها لا يُلطم الليث إلاّ وهو مصفود

٢ ـ وصف اللاجىء الشريد:

ولقي الموضوع الثاني (وصف اللاجىء الشريد) رواجاً كبيراً بين الشعراء وأطنبوا في الحديث عن مأساة الخيام وعن البؤس المقيم فيها. ولا يتسع المجال للحديث عن كثير الكثير مما قالوه في هذا المعنى،

وحسبنا إشارات عابرات:

منذ الأيام الأولى للنكبة يصوّر لنا الشاعر محمود الحوت العربي الشريد في الآفاق، ومما يقوله:

وراح يضرب في الأرض العراء ضحى ... ويقطع اليمّ مخمور المنى وجفا

فلا يرى في اتساع الكون من عبرٍ ... إلاّ الضنى واختناق الروح والتلفا

أما إذا أربدّ وجه الليل يفزعه ... وجدته بالغيوم السود ملتحفا

والجوع ينهش من أكباده قطعا ... وينتشي من دماء القلب مرتشفا

تقاذفته بلاد الله يذرعها ... مشرداً ضلّ لا نهجاً ولا هدفا

ويتحدث شاعر العودة هارون هاشم رشيد، وهو الفلسطيني المشرّد، عن تشريده وتشريد قومه، فيقول:

أنا لاجىء وطني استبيح وداسه غدر العدى،
أنا نازح داري هناك وكرمتي والمنتدى،
وطني هناك ولن أظل بغيره متشردا.

ويتحدّث شاعر النكبة يوسف الخطيب عن لجوئه وتشريده فيقول:

أنا لاجىء يا مصر أضرب في الحياة بلا دليل،
أنا لاجىء يا مصر أمسح في الثرى جرحي الكليل.
داري هنالك خلف أسوار الهزيمة والعويل،
داري هنالك في الهوان تئن من قدم الدخيل.

ويقف الشعراء عند خيام اللاجئين ويلتقون، فيكتب خليل زقطان ديوانه **صوت الجياع** ويهديه إلى المشرّدين في أنحاء الأرض، ويرسل هارون هاشم رشيد ألحان ديوانه الباكية **مع الغرباء** ويهديه إلى اللاجئين:

إليهم، إلى إخوتي اللاجئين إلى إخوتي يوم يدعو الدم
إليهم وإن سكنوا في الكهوف وفوق روابي الأسى خيّموا
إليهم سأشدو بشعر الحياة ومنهم بروحي سأستلهم

ويرسل الشاعر كاظم جواد من العراق تساؤلاً حزيناً تبعثه الخيام:

أحشرجات الثأر ما أحسّ في الخيام،
أم رجع موسيقى الجراح يوقظ النيام
في ظلمة الملاجىء الدكناء والخيام؟

وينطلق صوت الشاعر العراقي عبد الوهاب البيّاتي من «الملجأ العشرين» ليقصّ علينا وحشة الملجأ وبؤسه وآماله:

كفراغ أيام الجنود العائدين من القتال
وكوحشة المصدور في ليل السعال
كانت أغانينا، وكنا هائمين بلا ظلال.

ويقف الشاعر المناضل كمال ناصر أمام خيمة باكية من خيام اللاجئين في الأردن، ليلتقط صورة حية لتلك الخيمة المذعورة الحيرى:

مذعورة، على رحاب المكان مصلوبة، منسية في الزمان
حيرى على أوهامها في المدى لا حبّ في سمائها، لا حنان
مشدودة في الأرض معصوبة كأنما شدّت بأيدي الهوان

وتقبع لاجئة حزينة أمام خيمة من الخيام المنشورة على الضفة الغربية من الأردن، ولا تشارك الناس مباهج العيد، فتخاطبها الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان:

وأراك ما بين الخيام قبعت تمثالاً شقيا

متهالكاً يطوي وراء همومه ألماً عتيّاً.
أترى ذكرت مباهج الأعياد في (يافا) الجميلة؟
أهَفتْ بقلبك ذكرياتُ العيد أيام الطفولة؟

ويقدّم لنا الشاعر المصري المبدع محمود حسن إسماعيل صورة رهيبة «لخيمة البهتان» كما يسميها، فيصف لاجئاً من عرب فلسطين الأحرار يستصرخ أخاه العربي وراء الخيام:

أخي قد مزّقت ريح الدجى بيتي وأيامي،
وساقتني على الأرض بهذا الهيكل الدامي،
وهذا الشبح المطرود في هذا الأسى الطامي
ينادي: أين ملك الله تخبط فيه أقدامي؟
وأين الأرض تحملني وتدفن بعض آلامي
وبعض خطاي في هذا الدجى المتفجر الهامي؟

ومما يقوله في هذه القصيدة:

هنا في خيمة البهتان والطغيان والزور
لدي مأوى كلحد الميت في النسيان محفور.
رُميت كدعوة وقفت على درب المقادير
يصب التيه في خلدي خطا الظلمات في النور.
فأشرب حيرتي وبكاي في كف الأعاصير
وأذرف أدمعي الخرساء في صمت الدياجير.

ويقرأ الشاعر كمال ناصر في عيني إحدى اللاجئات أسطورة الضياع فيقول (في ديوانه: جراح تغنّي):

عيناك خيمتان ترويان   أسطورة الضياع في الزمان
وتعمقان في دجى الحرمان   وتصلبان في ذرى المكان

على أديم الهجر والنسيان

عيناك خيمتان للعذاب   تطل منهما رؤى المصاب

جريمة التاريخ والأحقاب   وغفلة الأصحاب والأحباب

في موكب النزال والغلاب

عيناك خيمتان للصراع   مغموستان في دم الجياع

لحن كئيب موحش الإيقاع   تعزفه قيثارة الأوجاع

تروي لنا أسطورة الضياع

٣ ـ الحنين إلى الديار:

ويجتذب الموضوع الثالث، موضوع الحنين إلى الديار الغالية والتربة السليب، خيال الشعراء وذكرياتهم، فيغنّون الأرض الطيبة ورُباها، ويستحضرون أيامها الحلوة الخضراء، ويتمزقون لوعة وحنيناً إلى تلك الربوع وذلك الربيع.

هكذا يُسأل الشاعر الفلسطيني المشرد بشير قبطي عن هويته ومكانه، ويجيب:

أنا من ربى يافا من الشطّ المرصّع باللآلي

. . . .

أنا من تلال الرملة البيضاء ذهّبها الأصيل

من سفح غزة، من ربوع اللّد تحضنها السهول

من روض حيفا، روض كرملها، تلذّ به الشمول

من دوح يافا، من عروس الشرق، أسكرها الهديل.

أنا من ضلوع القدس، شرّحها بمبضعه الدخيل.

ويحنّ الشاعر أبو سلمى إلى داره في فلسطين وإلى دنيا من

الذكريات العذبة، فيقول:

داري التي أغفت على ربوة حالمة بالمجد والغارِ
تفتّح الزهر على خدّها فعطّرت أيام آذارِ
والتينة الخضراء في ظلها تاريخ أشواقي وآثاري
والعين خلف الدار في المنحنى تروى حكاياتي وأخباري

ويحنّ الشاعر عبد الرحمن الكيالي إلى يافا وأمسياتها الناعمة:

ويافا الجميلة بنت المفاتـ ـن كيف عن الأهل سلوانها
أتصبو إلى البحر عند الغروب وتشدو على الماء خلجانها
ويعلو الضجيج بها في الصباح ويلهو مع الليل نشوانها

ويرى شاعر النكبة يوسف الخطيب عندليباً على ضفة بردى مقبلاً من الجنوب، مهاجراً مثله من فلسطين، فيناجيه قائلاً:

وأكاد ألمح في وجومك لون مأساتي
جرحي وملحمتي وتشريدي وآهاتي

. . . .

بي لهفة يا صاحبي مشبوبة النار
هل بعض أخبار تحدثها وأسرار
للظامئين على متاه الوحشة العاري
كيف الحقول تركتها في عرس آذار؟

إلى أن يقول:

لو قشّةٌ ممّا يرف ببيدر البلد
خبأتها بين الجناح وخفقة الكبد
لو رملتان من المثلّث أو ربا صفد.
لو عشبة بيد، ومزقة سوسن بيدا!

ويحنّ الشاعر محمود الحوت إلى يافا وسائر المدن المغتصَبة ويقول:

يافا لقد جفّ دمعي فانتحبت دما متى أراك وهل في العمر من أمد
أمسي وأصبح والذكرى مجدّدة محمولة في طوايا النفس للأبد
كيف الشقيقات! واشوقي لها مدنا كأنها قطع من جنة الخلد

٤ ـ الأمل في العودة والدعوة إلى الكفاح:

من خلال الجراح ومن خلال اليأس ومن خلال الحقد، ولدت لدى شعراء النكبة آمال العودة، واستيقظت روح الثأر وبواعث الإعداد للجولة الظافرة.

وهكذا ما لبث شعر النكبة والمأساة حتى انقلب إلى شعر العودة والثورة. وغذّت هذه الآمال في نفوس الشعراء الأحداث المحمّلة بالأمل، التي ظهرت في دنيا العرب، بعد قيام العديد من الثورات فيها، وبعد قيام الجمهورية العربية المتحدة خاصة. ومن هنا ربطوا ربطاً وثيقاً بين آمالهم وأحلامهم وبين النضال العربي الذي يبشّر بانبلاج الفجر الجديد.

وها هوذا الشاعر يوسف الخطيب يكتب ديوانه **عائدون**، وفيه اللهفة الظامئة إلى يوم الثأر والأمل في الإشراقة الباسمة ليوم النصر. ومما يقوله:

أما ترانا في الدجى نغتلي وموعد الثأر ينادينا
نسعى إلى الفجر وما نأتلي نمزّق الليل بأيدينا
إن كنت لا تعرف مَن أمتي فاسأل عن العرب الميادينا
نكاد من سورة آلامنا نتخذ الحقد لنا دينا

وها هوذا شاعر العودة هارون هاشم رشيد يشحن شعره بالإيمان

بالنصر والعودة. ومما يقوله في ديوانه عودة الغرباء مخاطباً أخاه في الخيمة السوداء:

أخي لن يغمض الجفن على حق ولا ثار
ولا لن ترجع الأرض بغير الدم والنار
هناك بوثبة تعصف من دارك أو داري
هناك غداً سنشعلها ونمحو لطخة العار

وعندما قامت الوحدة بين سورية ومصر، عبّر شاعر العودة عن فرحته وتراءت له جماهير اللاجئين تزحف من الخيام والكهوف لتغنّي نشيد الوحدة وأنشودة الأمل:

يا إخوتي غداً ستنهار الحدود وسوف لا يكون في بلادنا يهود
وسوف يشرق الضياء على مرابع الفداء
فأبشروا واستبشروا بالعودة وهللوا وكبِّروا للوحدة
يا إخوتي

ويوقف أخوه الشاعر علي هاشم رشيد شعره على العودة في ديوانه **أغاني العودة**، ويدعو إلى المعركة، ويستبشر بيوم النصر:

أخي هزّنا الشوق للموطن ونحن نعيش بلا مسكن
تحامل على جسمك المثخن تقدّم تقدّم ولا تنثن
وصح يا نيام إلامَ المنام!

إلى أن يقول:

فلسطين إنك روح ودم فلسطين إنك نبع الشمم
عرفنا بأرضك طعم الكرم فلن نخفر اليوم تلك الذمم
فإن الكريم يعاف الملام

ولا شك أن الشاعر هارون هاشم رشيد هو شاعر العودة بلا منازع، غنّاها في دواوينه الأربعة (**مع الغرباء ـ عودة الغرباء ـ غزة في خط النار ـ أرض الثورات**). فلقد استخرج من الكهف والخيمة السوداء ضياء العودة ونداء الثأر:

من الكهف والخيمة البالية   سأجمع للثأر أشلائيه
سأجمع أهلي وأصحابيه   وأصرخ من عمق أعماقيه
وأرسلها صيحة داوية   وأدعو إلى الجولة الثانية

ولم يروعه بؤس الخيام بل استولد هارون روح التفاؤل والنضال:

هذي الخيام ألا ترى   ضاقت بمن فيها الخيام
لا.. لا يروّعك السقا   م فلن يحطمها السقام
كلا ولا هذا الشقا   ء إذا تفشّى والحِمام
لا لن يضير عقيدة   من أجلها صلّوا وصاموا

ويستصرخ المنكوبين التائهين ويحضّهم على الكفاح:

يا أخي الضارب في التيه وما كلّت خطاك
أنت تمشي باندفاع والدُّنى تمشي وراك
فإذا اليأس تراءى حطمته قبضتاك
وإذا الدمع تنزّى جفّفته مقلتاك
يا أخي إن تهتَ في الدرب فلا تلق عصاك
سر وكافح جاهداً ما استطعت تبلغْ مبتغاك.

إنه مؤمن بالعودة رغم الشقاء والمحن:

سنعود يا أختاه للوطنِ   رغم الشقاء وقسوة الزمن
رغم الليالي العابثات بنا   والجوع والتشريد والمحن

وهو يرى يوم العودة قريباً:

وسنجمع الشمل الكبير ونحشدُ
وإذا دعا الداعي وحان الموعدُ
ألفيتنا من كل صوب نرفدُ
كالسيل نهدر بالجهاد ونرعدُ
الزحف . . إن الزحف موعده غدُ .

ويناجي الشاعر أبو سلمى فلسطين بقصيدة يسميها «بعد عشر سنين»، يربط فيها بين الوحدة العربية وبين تحرير فلسطين، فيقول:

يا أحبّائي مضت عشرة ولم   تلثم الترب المفدّى شفتانا
وشظايانا اللواتي وحّدت   بين أهلينا ولم يبق سوانا
لن تتم الوحدة الكبرى إذا   لم يلح في الوحدة الكبرى حمانا

وتفتّق الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان من الكارثة آمال العودة الظامئة، في قصيدة لها سمّتها «بعد الكارثة» (من ديوان وحدي مع الأيام)، وفيها تقول:

ستنجلي الغمرة يا موطني   ويمسح الفجر غواشي الظُّلمْ
والأمل الظامىء مهما ذوى   لسوف يروى بلهيب ودم
لن يقعد الأحرار عن ثأرهم   وفي دم الأحرار تغلي النقم

وفي قصيدة لها باسم نداء الأرض (من ديوان وجدتها)، تصف حنين المشردين إلى الأرض السليب وعزمهم على العودة:

سأرجع لا بدّ من عودتي   سأرجع مهما بدت محنتي
وقصة عاري بغير نهاية   سأنهي بنفسيَ هذي الرواية
فلا بدّ لا بد من عودتي

وتصوّر الشاعرة السورية عزيزة هارون «فلسطينية نازحة وولدها»، وتعطّر لوحتها الجميلة بأمل العودة فتقول:

لا وحق الحب لن أخلف عهدا
وحنيني رفّ ريحاناً ووردا
أنا للثأر وللطفل المفدّى
إنه للنمرة الحمراء يهدى
ولدي بين اليتامى وغداً يشتد زندا
قال يوماً لرفاق الصف: إني أتحدّى؟
إن أمي صقلتني وأعدّتني فِرندا
أنا للثأر ولن أخلف عهدا
ألف بركان بقلبي ليس يَهدا.

ويروي الشاعر المبدع نزار قباني حكاية فلسطين للأجيال المقبلة، محمّلة بالآمال، فيقول «قصة راشيل شوارزنبرغ»:

أكتب للصغار
قصة بئر السبع واللطرون والجليل
وأختي القتيل
هناك في بيّارة الليمون، أختي القتيل.
هل يذكرالليمون في الرملة، في اللد، وفي الخليل
أختي التي علّقها اليهود في الأصيل
من شعرها الطويل؟
أختي أنا نُوار..
أختي أنا الهتيكة الازار
على رُبى الرملة والجليل،
أختي التي ما زال جرحها العليل
ما زال بانتظار
نهار ثار واحداً، نهار ثار

على يد الصغار
جيل فدائي من الصغار
يعرف عن نوار
وشعرها الطويل
وقبرها الضائع في القفار
أكثر مما يعرف الكبار!

ويهيب الشاعر المصري علي محمود طه بكل فتى عربي أن يحمل السلاح ويخوض المعركة المقدّسة:

أخي جاوز الظالمون المدى   فحقّ الجهاد وحقّ الفدى

. . .

أخي أيها العربي الأبي   أرى اليوم موعدنا لا الغدا

. . .

أخي قمْ إلى قبلة المشرقين   لنحمي الكنيسة والمسجدا
يسوع الشهيد على أرضها   يعانق في جيشه أحمدا

. . .

فلسطين يفدي حماك الشباب   وجَلَّ الفدائيُّ والمفتدى
فلسطين تحميك منا الصدور   فإما الحياة وإما الرّدى

ويقص شاعر الثورة سليمان العيسى قصّة «رسالة مؤرقة» (من ديوان **رسائل مؤرقة**) تلقاها من «لاجئة»، ويحدّثنا عن قلق النفس العربية وأملها في بزوغ الفجر الذي طال انتظاره:

«عائدون..
عائدون..
إننا لعائدون».

هدر يضج بسمعي ونداء وخطا تجر وشارع وضّاء
ومواكب ألف الطريق ذهابها وإيابها والريح والضوضاء
والهاتفون حناجرٌ يَبِس الهوى فيها ومات الحب فهي زُقاء

٥ ـ النكبة لدى شعراء المهجر:

شارك شعراء العرب في المهاجر الأمريكية في بكاء فلسطين وجراحها، وثاروا لما أصاب أمتهم من عار. ولا يتسع المجال للحديث عن عطاء الشعر المهجري في هذا المجال. وحسبنا أن نذكر «قصيدة الحجيج» التي نظمها الشاعر المغترب جورج صيدح عام ١٩٤٩ (في ديوان نبضات)، وعبّر فيها عن «نبضات» الألم التي اعتصرت قلبه بعد النكبة، ومطلعها:

حجوا جناح الله واعتصموا يا قاضي الحاجات كن لهم

وفيها يقول:

العابثون بحقنا اتحدوا والقائمون بأمرنا انقسموا
حتى متى هذا الخنوع لهم يا أمة دانت لها الأمم
ثوري عليهم إنهم رمم بئس الشعوب تقودها رمم
قسماً بأوطان أقدّسها إنْ جاز لي بالمقدس القسم
للعرب أوضاع إذا انحطمت أضلاع إسرائيل تنحطم

ويرجع الشاعر النازح إلى وطنه وعار فلسطين يقضّ مضجعه، فيقصّ علينا في قصيدة «الغراب الغازي» قصة الغراب الذي اقتحم عليه غرفته في بحمدون فخيل إليه أنه قادم من هناك.. من إسرائيل:

تطيّرت من ناعب في الصباح دخيل على مهرجان السنا

مغير يمزّق شمل الرياح   إذا دافعته عن المجتنى
غمامة غمّ تجاه البطاح   وراية شؤم على المنجنى

وإنْ نذكر ثورة الشاعر المهجري إلياس فرحات على المهزلة الحربية التي انتهت بخيانة الحكام حين يدعو الشباب العربي إلى الثأر ومحو العار فيقول:

قُلْ للمغير على منازلنا   كالسيل ينفذ من هنا وهنا
حمّلت نفسك فوق طاقتها   وركبت ويحك مركباً خشنا
إنْ لم يكن زمن يوافقنا   للثأر منك سنخلق الزمنا
فاجعلْ ضريحك جاهزاً أبداً   وأعدّ نفسك واحمل الكفنا

وإلياس فرحات هو الذي يصف في قصيدة أخرى تخاذل الزعماء فيقول:

أرأيتم الزعماء كيف تخاذلوا   أرأيتم الأقيال والأمراء
ذُلّ الجميع على عُلى ألقابهم   لأذلّ من وطء الثرى استخذاء
حملوا المعرّة طائعين فحمّلوا   أثقالها الإخوان والأبناء
نَشرت مخازيهم على آفاقنا   شرقاً وغرباً غيمةً سوداء
يتزاءرون كأنهم أُسد فإن   لمحوا العدا انقلب الزئير مواء

٦ ـ شعراء الأرض المحتلة[١]:

كان من الطبيعي أن يتفجر الشعر والأدب في الأرض المحتلة بعد عام ١٩٤٨. ومع ذلك فبزوغ هذا الأدب لم يتم إلاّ بعد مخاض

(١) يحسن الرجوع في هذا المجال إلى الكتاب القيّم الذي وضعه غسان كنفاني: **أدب المقاومة في فلسطين المحتلة**، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٦.

طويل بعض الشيء. ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة، منها جو «الحصار الثقافي» الذي فرضه المغتصبون الإسرائيليون على الكتّاب العرب المقيمين في إسرائيل. ومنها البنية الاجتماعية للسكان العرب الذين مكثوا في الأرض المحتلة، إذ كان أكثرهم من أبناء الشعب العادي الذي لا يملك مستوى ثقافياً كافياً يُمكّنه من أن يلعب دوره في الأدب.

ولهذا كانت بواكير الشعر التي ظهرت في الأرض المحتلة تنتمي إلى الشعر الشعبي بالدرجة الأولى. فقد ظلّ هذا النوع من الأدب الشعبي بعد سقوط فلسطين عام ١٩٤٨ «هو المكان الذي عبّر فيه الشعب المغلوب على أمره عن أشواقه» كما يقول غسان كنفاني في كتابه **أدب المقاومة في فلسطين المحتلة**. وظهر العديد من «القوّالين» الذين لعبوا دوراً هامّاً في حياة العرب هناك، حتى اضطرت السلطات الإسرائيلية إلى تقديم عدد كبير منهم إلى المحاكم العسكرية. وقد سجّل هذا الشعر الشعبي كثيراً من الأحداث الهامة في حياة العرب المقيمين في الأرض المحتلة: سجّل مظاهراتهم واشتباكاتهم مع شرطة العدو، وسجّل مصادرة الدولة للأراضي العربية، وسخر من سمعة الخونة الذين يتعاونون مع العدو، وكان بحق المُعبِّر عن نضال العرب هناك ضد الدولة المغتصبة.

أما في ميدان الشعر الفصيح فقد ساد شعر الغزل بعد النكبة مباشرةً. ولم تكن هذه الظاهرة، كما يُبيّن غسان كنفاني في كتابه القيّم، مقطوعة الجذور في الواقع عن شعر المقاومة، فلقد تدفق الغزل - كما يقول غسان كنفاني - ليس فقط ليعوّض شعوراً مريراً بالوحدة والاغتراب، ولكن أيضاً ليشد من جديد علاقات جديدة في ذلك المجتمع الصغير الذي اكتشف فجأة أنه صار «أقليّة» مغلوبة على أمرها وسط زحام غريب (**أدب المقاومة**. . .، ص٢٣).

وقد اغتذى شعراء المقاومة بعد ذلك بهذا الغزل الوليد،

واستطاعوا ـ على يد محمود درويش وسواه من شعراء الأرض المحتلة الشباب ـ أن يصهروا عاطفة الغزل في إطار موقف المقاومة. وعلى أي حال، كان علينا أن ننتظر حوالى عشر سنوات بعد النكبة، حتى نعثر على شعر فصيح رفيع المستوى.

في تلك الآونة (حوالى عام ١٩٦٠) نشر سميح القاسم ـ وهو شاعر من الرامة ـ أجزاء من قصيدة رمزية اسمها «إرَمِ» مؤلفة من أربعة أناشيد عن العرب في الأرض المحتلة.

كذلك نشر توفيق فيّاض مسرحية رمزية اسمها **بيت الجنون**، وقصّة بعنوان «المشوهون». كما نشر محمود درويش أجزاء من **عاشق من فلسطين**.

غير أن الميدان الحقيقي لشعر المقاومة في تلك الفترة ظلّ في ساحات القرى والمهرجانات، وانتقل عن طريق الرواية والحفظ، نظراً لصعوبة النشر.

ويردد عرب الأرض المحتلة ـ كما يذكر غسان كنفاني ـ للشاعر درويش قصيدة اسمها «ليلى من غزة» يصف فيها مصير فتاة عربية من قطاع غزة عقب دخول اليهود إليه إبّان العدوان الثلاثي. وفيها يقول:

أنا في ترابك يا بلادي رعشة الدفء الفتية
أنا في كروم التين في قلب البراري العسجدية
وهنا جذوري في ترابك
كيف تقلعها أياد أجنبية؟

ويتناقل الناس في فلسطين قصيدة قالها نايف صالح سليم من الجليل، يسخر فيها من المجالس البلدية في القرى، وفيها:

ومجلس في قريتي يمشي بحسن النيةِ
مسلَّمٌ أموره لخالق البريةِ

ويتناقلون كذلك قصيدة لشاعر مجهول يتحدث فيها عن جبر معدّي، المعروف بتعاونه مع سلطات الاحتلال، وذلك حين زار البقيعة ورفض الناس استقباله. وفيها يعارض قصيدة عنترة ويقول على لسان العميل:

أنا في تالي زماني	صرت رمزاً للهوان
ساء فعلي فغدا	يهرب مني من يراني
شاربي طوّلته	أوصلته عيني وذاني

وفي الذكرى التاسعة لمجزرة كفرقاسم شق وفد من الشباب طريقه إلى تلك القرية، فمنعه العدو. ولكن الشباب تجمعوا وراء الأسلاك واحداً وراء الآخر، فانقلبت الأسلاك إلى مهرجان. فأنشد الشاعر سميح القاسم بهذه المناسبة قصيدة يحفظها كل جليليّ:

رغم ليل الخنى وليل المظالم	حلّ وفد الكفاح يا كَفْرقاسم
رغم عسف الطاغوت يُزبِد سما	رغم سد الأسلاك في الدرب جاثم
رغم حقد الرشاش يشهره الظلم	أتينا.. فليلعق الخزي حاكم
يا قبور الأحباب ألف سلام	من قبور غزّت عليها المعالم
أي شيء من العزاء نزجيّ؟	نحن في أسرة الحداد قوائم
نحن جئنا نهيب أن تستفيقي	فلتلبي النداء يا كفرقاسم

وفي النصف الأول من عام ١٩٦٦ أودع الشاعر محمود درويش السجن في الأرض المحتلة، وكتب هناك ديوانه الشهير **عاشق من فلسطين**. وفي هذا الديوان يربط درويش بين الغزل والمقاومة، وتغدو الحبيبة - كما يقول غسان كنفاني - شفّافة إلى حد تضيع فيها معالمها بالأرض، ويضحي جمالها هو أيضاً ملخصاً في كلمة ساحرة: «فلسطينية» (**أدب المقاومة**. . .، ص ٤١). ومما كتبه في هذا الديوان:

وأقسم:
من رموش العين سوف أخيط منديلا
وأنقش فوقه شعراً لعينيك
واسماً حين أسقيه فؤاداً ذاب ترتيلا
يمد عرائش الأيك.
سأكتب جملة أحلى من الشهداء والقبل:
«فلسطينية كانت... ولم تزل».

وبعد سلسلة الاضطهادات السياسية والاقتصادية ضد عرب الأرض المحتلة، يتحدّى توفيق زيّاد ذلك العسف في قصيدة يقول فيها:

أهْوَن ألف مرة..
أن تدخلوا الفيل بثقب إبرة
وأن تصيدوا السمك المشويّ في المجرّة
أن تحرقوا البحر
أن تنطقوا التمساح
أهون ألف مرة
من أن تميتوا باضطهادكم وميض فكره
وتحرفونا عن طريقنا الذي اخترناه..
قيد شعره.
هنا على صدوركم باقون كالجدار
نجوع
نعرى
نتحدى
ننشد الأشعار

ونملأ الشوارع الغضاب بالمظاهرات
ونملأ السجون كبرياء
ونصنع الأطفال جيلاً ناقماً
وراء جيل
كأننا عشرون مستحيل
في اللّد والرملة والجليل.

وللشاعر سميح القاسم قصيدة بهذا المعنى اسمها «خطاب من سوق البطالة»، وصف فيها الواقع المرير لعرب الأرض المحتلة الذين يحاول العدو تحويلهم إلى طبقة عبيد وخدّام. وفيها يقول:

ربما أفقد ـ ما شئت ـ معاشي
ربما أعرض للبيع ثيابي وفراشي
ربما أعمل حجّاراً
وعتّالاً
وكنّاس شوارع.
ربما أخدم في سُوح المصانع
ربما أبحث في روث المواشي عن حبوب
ربما أخمد، عرياناً وجائع
يا عدو الشمس..
لكن لن أساوم
وإلى آخر نبض في عروقي
سأقاوم..».

وهي قصيدة طويلة رائعة، تمثّل التحدّي العربي في أسمى صوره. وللشاعر نفسه قصيدة بعنوان «بطاقة إلى الجماهير» يخاطبها فيها قائلاً:

رِدّي علـى الـخـصـم الألـدّ آن الأوان لأن تــــــردي
رِدّي عـلـى كـهّـان عـرشٍ شِـيـد مـن صِـفـد وصـفـد

. . .

يا بنت من رضعوا على الآ فـاق رايـات الـتـحـدّي
رِدّي علـى الـخـصـم الألـدّ آن الأوان لأن تـــــردّي

وللشاعر حوارية مشهورة، اسمها «حوارية العار» يصف فيها الصراع بين السلطان والشاعر، وفيها يقول على لسان «الشاعر»:

غيـر الـلـواء الـحـر لا نـتـرسّـمُ وبغير صكّ جراحنا لا نقسمُ
ولغير قدس الشعب لسنا ننحني وبغير وحي الشعب لا نتكلم
فلتشرب الرايات نخب جراحنا كأساً يفيض على جوانبها الدم

وللشاعر قصائد عديدة تمثّل كلها التحدّي والثورة على العدو. ومن العسير أن نقتفي آثار شعراء الأرض المحتلة، لاسيما أن الكثير من شعرهم لا يزال غير منشور، بسبب ظروف الاحتلال. ونكتفي بهذه النماذج المحدودة، لنرى من خلالها كيف ولد شعر جديد في الأرض المحتلة، فيه كبرياء المقاومة وعزّتها، وفيه آمال الإنسان العربي المغلوب على أمره في تلك الديار المغتصبة.

ثالثاً ـ أثر حرب ١٩٤٨ في الفكر العربي

من الصعب أن نرصد آثار النكبة في الفكر العربي، لأن هذا الفكر في النهاية متأثرٌ كله من قريب أو بعيد بهذه الهزّة الكبرى التي أيقظت الوجود العربي على علله وأدوائه ومستقبله، فحرّكت بالتالي وبوجه خاص حياته الفكرية في شتى صورها وأبعادها.

غير أن في وسعنا مع ذلك أن نسجّل بعض السمات العامة التي رافقت حياة الفكر بعد النكبة، وأن ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن

بعض المعالم الأساسية التي تجلّى فيها رد فعل الفكر على تلك المأساة.

أما فيما يتصل بالسمات العامة التي رافقت حياة الفكر بعد النكبة، فمن الهام أن نشير إلى ما يأتي:

١) ازداد شعور المفكّرين بدورهم بعد النكبة، وعلا صوتهم في كثير من الأحيان فوق صوت الساسة والزعماء التقليديين. ذلك أن النكبة بدت لهؤلاء المفكّرين ـ كما سبق أن ذكرنا ـ نتيجة طبيعية لتخلّف حضاري وثقافي شامل، ورأوا فيها تعبيراً عن إفلاس النُظُم الفكرية التي سادت الحياة العربية وعن إفلاس الأنظمة السياسية بالتالي. فكأن النكبة كانت في معناها العميق تأكيداً لأولوية الثقافة والفكر، ولضرورة البدء بالثورة الفكرية كشرطٍ أساسيٍ لأي ثورة حقيقية عميقة في بنية الحياة العربية. ومن هنا نزل المفكّرون إلى الساحة في جرأة وقوة، وطمحوا إلى أن تكون لهم قيادة السفينة بعد عجز القادة السياسيين التقليديين.

٢) غير أن نكبة عام ١٩٤٨ أدّت ـ كما سبق أن رأينا ـ إلى حدوث تغيّرات في الحياة السياسية العربية، وكان من آثارها ولادة أنظمة وأيديولوجيات جديدة أرادت أن تتولّى بنفسها تصفية التركة القديمة وقيادة السفينة من جديد. ومن هنا كان صراع الأيديولوجيات واضحاً وعنيفاً بعد النكبة. وهذا الصراع جعل المفكّرين في معظم الأحوال يضعون جهدهم الفكري وطاقاتهم في إطار هذا الصراع، بحيث استطاعت الأيديولوجيات السياسية المختلفة أن تحتويهم ولم يستطيعوا هم أن يحتووها. وهكذا جاء فكرهم في معظم الأحيان معبّراً عن هذه الأيديولوجيات السياسية المختلفة، ولم يستطع أن يرقى إلى مستوى نقدها وتوجيهها.

٣) ومن هنا غدا الفكر العربي بعد النكبة تابعاً إلى حد بعيد

للأنظمة السياسية التي أخذت تصطرع، يتولى غالباً مهمة تبرير هذا النظام أو ذاك، ويدور في فلك تلك العقيدة أو تلك. الأمر الذي أدّى في كثير من الأحيان إلى غياب الفكر النقدي الجريء والنتاج الصادق الأصيل. وزاد في خطر هذه الظاهرة أن الأنظمة السياسية التي سادت بعد النكبة ـ قديمها وحديثها ـ اضطرت بسبب حميا الصراع إلى تضييق حرية الفكر وإلى الوقوف موقف المناوىء من أي خروج على الأطر المرسومة. وكان من نتيجة ذلك أن انكمش الفكر في كثير من الأحيان، كما كان من نتيجته أن تصلّبت كثير من الأنظمة السياسية والعقائد السياسية وجمدت، مما أدّى إلى تقوقع هذه الأنظمة وانكفائها على ذاتها والقضاء على روح التجدّد والخلق فيها.

٤) ولا يعني هذا أن الفكر لم يعرف بعد النكبة كثيراً من الأقلام الصادقة الجريئة. غير أن هذه الأقلام اضطرت في الغالب ـ بحكم هذا الواقع السياسي ـ إلى أن تقول نصف الحقيقة، وإلى أن تكتفي بعموميات رمزية قليلة التأثير في المجرى المباشر للأحداث. يُضاف إلى هذا أنها جنحت في الغالب إلى التبشير بضرورة ولادة أفكار جديدة وإحداث انقلاب فكري في حياة العرب، ولم تستطع أن تولّد مثل هذه الأفكار وأن تضع لها صيغتها الشاملة المتكاملة. وهكذا لا نغلو إذا قلنا إن العمل ـ أي الحياة السياسية ـ ظلّ بسبب غياب الفكر النقدي أعمى يخبط خبط عشواء، وإن الفكر ظلّ بدوره ـ بسبب عجزه عن الانقلاب إلى نظرة متكاملة قادرة على توجيه الأحداث ـ عاجزاً معطّلاً.

٥) ومع ذلك فقد أدّى الفكر بعد النكبة جانباً من مهمته ـ وإنْ لم يستطع الوصول بهذه المهمة إلى أقصى مداها. فلقد استطاع أن يهزّ الصورة القديمة للحياة، وأن يظهر عجز الصيغ الفكرية العتيقة وإفلاسها، وأن يُهيء النفوس لولادة حياة فكرية جديدة، لم تتضح معالمها، ولكنها مع ذلك شاعت في الجو وانتشرت في الهواء تنتظر

صياغة أوضح وتخطيطاً أنجع.

وندع هذا الحديث عن أهمّ السمات التي طبعت حياة الفكر العربي بعد النكبة، لننتقل إلى الجزء الثاني من موضوعنا، نعني أهمّ المعالم الفكرية التي تجلّى فيها رد فعل الفكر على المأساة. وههنا نضطر إلى التوقف عند عدد محدود من الصّوى التي تمثّل، في نظرنا، أهمّ معالم هذا الفكر، معتذرين عن عجزنا عن استقصاء سائر المعالم:

١ ـ «عبرة فلسطين» لموسى العلمي[١]:

من أوائل ردود الفعل الفكرية التي ظهرت بعد النكبة ذلك الكتاب، أو بالأحرى الكُتيب، الذي وضعه موسى العلمي منذ عام ١٩٤٩، تحت عنوان **عبرة فلسطين**.

وإذا كان الكتاب يبدو لنا اليوم كتاباً بدائياً، يُقرّر بعض الحقائق البدهية التي شاعت وذاعت في السنوات الأخيرة، فمن الواجب أن نذكر أن مثل تلك الحقائق لم تكن بعد ذائعة أيام كُتب.

والكتاب محاولة لتحليل معركة فلسطين في أدوارها المختلفة، وللكشف عن العوامل التي أدّت إلى النكبة. وهو بعد ذلك نظرةٌ إلى المستقبل يُحاول صاحبها أن يضع من خلالها دستوراً جديداً للحياة العربية يُمكّنها من تجاوز نكبتها وبناء ذاتها.

أما فيما يتصل بتحليل معركة فلسطين وتفسير النكبة، فالكتاب يسجل الحقائق التي غدت معروفة حول أخطاء العرب في تلك المعركة وحول المؤامرات التي حاكها أعداء العرب: فهو يصف طابع الارتجال الذي ساد معركة فلسطين قبل النكبة، كما يصف الأحداث والأخطاء التي وقعت منذ قرار التقسيم. ويوجّه النقد إلى المعركة العربية التي

---

(١) موسى العلمي، عبرة فلسطين، بيروت، دار الكشاف، الطبعة الثالثة، أيار/ مايو ١٩٤٩.

قامت بعد قرار التقسيم (الذي أصدرته هيئة الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧)، مشيراً إلى ما ساد تلك المعركة من تفكك وفوضى، وما اتصفت به من عدم الشمول، وما رافقها من نقص في السلاح. . . إلخ.

ثم ينتقل إلى الحديث عن المعركة في الدور الثاني، بعد أن دخلت الجيوش العربية الحرب. ويبيّن ههنا أيضاً ما رافق هذه المعركة من تفكك وتخاذل وارتجال، وما ران عليها من عدم الجدّ في الحرب. ويحاول بعد ذلك أن يُحلّل الأسباب الرئيسية لانهزام الجيوش العربية. فيرد هذه الأسباب إلى فقدان الوحدة بين العرب وإلى وقوفهم أمام العدو «دويلات لا دولة، وشيعاً لا أمة»، وإلى جهاز الدولة العتيق والعقيم في الحكومات العربية وما أدى إليه من عجز عن فهم الموقف ومتابعة تطوره، وإلى وقوف الشعب العربي موقف المتفرج إجمالاً وكأن الأمر لا يتعلّق بكيانه وبقائه وحياته.

على أن أهمّ ما في كتاب موسى العلمي الجزء الذي يستخرج فيه العبرة من النكبة ويرسم طريق المستقبل. وطريق المستقبل هذا يرتد عنده إلى هدفين رئيسيين يتوجب العمل لهما: أولهما الوحدة العربية، وثانيهما تجديد بنية الحياة العربية.

أما الوحدة العربية، فعلى الرغم من إيمانه بها كهدف نهائي وكمطلب أساسي لا يتمّ بدونه القضاء على الكارثة، فإنه يقف منها موقفاً عملياً مرحلياً، فيرى أن تبدأ بوحدة الهلال الخصيب، فتضم الشام والعراق. ويرى في الوقت نفسه أن سبيل تحقيق هذه الوحدة هو السبيل الدستوري، وأن شكلها يمكن أن يكون أشبه بالاتحاد السويسري أو بالولايات المتحدة الأمريكية: كل دولة مستقلة في شؤونها الداخلية، لكنها كلها موحّدة في شؤون مشتركة عامة تقوم عليها حكومة مركزية واحدة.

وأما التجديد في بنية الحياة العربية في شتى جوانبها، فهو عند الكاتب مطلب مكمِّل للوحدة متكامل معها، وهو في الوقت نفسه شرط لازب يمكّن العرب من دخول العصر ومن اللحاق بركب التقدم.

ويتناول هذا التجديد عند المؤلِّف شتى جوانب الحياة: نظام الحكم، والسياسة الخارجية، وحقوق الشعب وواجباته والخدمات التي ينبغي أن تُقدّم له، والتنظيم الاقتصادي، والبرامج الإنشائية وسواها. وفي كل جانب من هذه الجوانب يرسم الكاتب خطة للعمل.

وهكذا نرى أن هذا المؤلَّف أشبه بدستور للحياة العربية الجديدة بعد النكبة كما يراها الكاتب. وهو في جملته ـ على حصافته ورصانته ـ لا يعدو أن يكون تسجيلاً لاتجاهات بدأت تتكوّن لدى الشعب العربي بعد النكبة خاصةً، ثم غدت بعد ذلك من بدهيات الفكر السياسي العربي. على أن أهمّ ما في هذا الكتاب دعوة المؤلِّف إلى الوحدة كشرطٍ أول لمواجهة العدو مواجهة فعّالة ولبناء دولة عصرية قوية. غير أنه ههنا يقف في منتصف الطريق كما رأينا، ولا يدرك أهمية ربط شمال الوطن العربي بجنوبه وغربه، ودور مصر الكبير في التكتل العربي المنشود. ولعلّ الأوضاع السائدة آنذاك (وعلى رأسها وجود حكم فاروق في مصر وبُعد ذلك الحكم عن قضايا الأمة العربية) هي التي أملت عليه ذلك الاتجاه في صياغته للوحدة.

٢ ـ «معنى النكبة» للدكتور قسطنطين زريق[١]:

وفي الأشهر التي تلت النكبة، ظهر كتاب هامّ لمفكر عربي رائد، هو كتاب **معنى النكبة** للدكتور قسطنطين زريق. وقد حاول كاتبه ـ كما ذكر ـ أن يستنطق أحداث عام ١٩٤٨ وأن يستخرج عبرتها. فوجد أن ما حدث ليس نكسة عابرة، بل نكبة عميقة هزّت الكيان

(١) الدكتور قسطنطين زريق، معنى النكبة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٤٨.

العربي كله. وأخذ يُحلّل أسبابها، فوجد أن لها أسباباً قريبة وأخرى بعيدة. ومن هنا كان لا بد أن تكون المعالجة المفروضة معالجة قريبة وبعيدة أيضاً.

وتحدَّث عن هذين الوجهين للمعالجة حديثاً مفصّلاً، فرأى أن المعالجة القريبة تقوم على خمسة أركان: تقوية الإحساس بالخطر وشحذ إرادة الكفاح؛ والتعبئة المادية في ميادين العمل كلها؛ وتحقيق أكبر قسط من التوحيد الممكن بين الدول العربية؛ وإشراك القوى الشعبية في النضال؛ واستعداد العرب للمساومة والتضحية ببعض المصالح لدرء الخطر الأكبر.

على أن هذه المعالجة القريبة ليست سوى حلول مؤقتة، أما «الحل الأساسي» فسبيله «تبدّل أساسي في الوضع العربي، وانقلاب تام في أساليب تفكيرنا وعملنا وحياتنا بكاملها». وهذا التبدّل الأساسي هو وحده الذي يكفل قيام كيان عربي متقدم قادر على أن يدرأ الخطر الصهيوني بل أي خطر أجنبي ويتغلب عليه، وهو الذي يتيح للشعوب العربية أسباب البقاء والكرامة والازدهار.

وأهم مقومات هذا الكيان العربي المنشود ـ كما يلخّصها في كتابه **معنى النكبة مجدداً**[1] ـ فهي: الاتحاد والتقدم الصحيح. والتقدم معناه «أن نصبح بالفعل وبالروح، لا بالاسم والجسم فقط، قسماً من العالم الذي نعيش فيه، نجاريه في نُظُم العيش والفكر، ونتكلم لغته، ونتصل بأصوله، ونضم مقدراتنا إلى مقدراته».

ولبلوغ هذه الغاية ـ كما يقول ـ «يجب أن تُتخذ خطى عديدة تقلب حياتنا من أوضاع العصور الوسطى والقديمة إلى وضع العصر الحديث»، وفي مقدمة هذه الخطى: «اقتباس الآلة واستخدامها في

(١) بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٧، ص٩.

استثمار مواردنا على أوسع نطاق ممكن، وفصل الدولة عن التنظيم الديني فصلاً مطلقاً؛ وتدريب العقل وتنظيمه بالإقبال على العلوم الوضعية والتجريبية... والابتعاد ما أمكن عن الخيال المخدّر والرومانطيقية المائعة...؛ وفتح الصدر واسعاً لاكتساب خير ما حقّقته الحضارات الإنسانية من قيم عقلية وروحية أثبت صحتها الاختبار الإنساني الجاهد لبناء الحضارة».

وهذه الخطى لا بد لها من وسائل وضمانات. وضماناتها ـ عند المؤلِّف ـ تقوم على أمرين: أولهما الإصلاح التطوّري في مختلف نواحي الحياة القومية، وهو بطبيعته طويل المدى بطيء الأثر. وثانيهما مبادرة القادة والصنعة الذين يدفعون الإصلاح دفعاً، شرط أن يكونوا في أنفسهم تقدميين بأصحّ معاني التقدمية وأعمقها. ذلك أن الحلّ الأساسي لقضية فلسطين، بل للقضية العربية كلها، سيبقى ـ عند المؤلِّف ـ «حُلماً وإمكانية ما لم يتحقّق أولاً في نفوس الفئة المناضلة من أبناء الأمة».

هذه خلاصة سريعة لأهم الأفكار الواردة في كتاب **معنى النكبة** كما لخّصها مؤلِّفه في كتابه الجديد **معنى النكبة مجدداً**. ومنها نرى أن الكتاب تعبير عن اتجاه أخذ يولد لدى المفكّرين العرب بعد النكبة، يرى أن الخلاص من النكبة يتم، أولاً وقبل كل شيء، عن طريق تغيير العقل العربي و«تحديثه» وربطه بتجربة العصر. وهو اتجاه هام وأساسي، يركّز على الحلول البعيدة المدى، وإن كان لا يغفل المعالجة القريبة. إنه يضع المسألة الفلسطينية ـ وهي مسألة حادة راهنة ـ في إطار عام وعالمي، إطار العمل من أجل «التقدّم». ولا يحاول المؤلِّف أن يخطو خطوة أوضح، ليدلّ على المنطلقات العملية التي تستطيع أن تحقّق التقدم المنشود في البلدان العربية بأسرع وقت ممكن والتي تقود إلى «بناء المجتمع العلمي المتحضر»، بل يكتفي في هذا

المجال بإلقاء التبعة على العقل العربي حين يتطوّر (على «عقلنة» العقل العربي) وعلى القادة والصنعة حين يكونون تقدميين.

ولا شك أن النتيجة الطبيعية لتفكير المؤلِّف لا بد أن تكون الأخذ بفلسفة متكاملة شاملة، تتكامل فيها أهداف التغيير الاجتماعي والاقتصادي والعلمي مع أهداف التغيير السياسي.

٣ ـ «النكبة والبناء» للدكتور وليد قمحاوي[١].

في هذا المؤلَّف الضخم (٤٤٥ صفحة من القطع الكبير)، يُحلّل المؤلِّف النكبة ويرسم خطة القضاء عليها وبناء المستقبل.

وفي تحليله للنكبة، يرجع إلى الأصول التاريخية البعيدة للنكبة، منذ انحطاط العرب وقيام الإمبراطورية العثمانية. ويتحدث عن واقع البلدان العربية في القرن الثامن عشر وعن تخلّفها وضعفها. وينتقل إلى التطوّر الذي حدث في القرن التاسع عشر. ثم يتوقف عند عناصر الغزوة الصهيونية، مرتداً إلى التاريخ البعيد، معرِّجاً على العصور الحديثة وعلى نشأة الحركة الصهيونية. ثم ينطلق في الحديث عن تاريخ القضية الفلسطينية منذ وعد بلفور حتى حرب عام ١٩٤٨. ويُحلّل أحداث هذه الحرب وما رافقها من أخطاء، وما تلاها من انقلابات سياسية أصابت الكثير من أنظمة الحكم العربية. ثم يتحدث عن فلسفة النكبة، وعن القتلة (وهم الغزاة الأوروبيون والصهيونيون) وعن القتلى (وهم العرب)، وعن عوامل الضعف العريق التي أدت عندهم إلى النكبة، مقرراً أن الوطن العربي عرف الغزاة طوال نيف واثني عشر قرناً، على يد الفرس والأتراك والديالمة والسلاجقة والمغول والمماليك والعثمانيين والفرنسيين والبريطانيين والصهيونيين. وهؤلاء الغزاة جميعاً هم قتلته في الظاهر، غير أنهم أبرياء من تلك

---

(١) بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٦.

الجريمة البشعة، لأنه «كان قتيلاً قبل أن يكون هنالك غزاة».

وفي الجزء الثاني الهامّ من كتابه ينتقل وليد قمحاوي إلى حديث «البناء». ويرى أن الوطن العربي يجابه الآن «الحدّيات ذاتها التي جابهها أهل هذا الوطن قبل نيف وثلاثة عشر قرناً، سواء كانت عللاً وأدواء في داخلنا، أو سحراً وأخطاراً من خارجنا». ويبيّن أن دراسة الماضي تخبرنا أن الوسيلة الوحيدة لقلقلة هذا الجمود الذي يرين على الوطن العربي «هي نفسها التي يستعملها الأطباء في معالجة بعض الأمراض المستعصية، وذلك بإحداث هزّة أو صدمة». ويخبرنا هذا الماضي كذلك «أن الاستجابة الناجحة للحدّيات لا تكون جزئية أو شكلية، إذ إن هذه عاقبتها الخسران».

إن الماضي يُخبرنا إذن أن الصدمات وضروب النكبة هي نِعمٌ بالنسبة إلى أي أمة، لأنها تُوقظها من رقدة العدم وتدفعها نحو التفكير والعمل الجدي لمواجهة تلك الصدمات. وهكذا تضعنا نكبة عام ١٩٤٨ وجهاً لوجه أمام ضرورات بناء الوطن العربي. وأمامنا من أجل هذا البناء، تاريخ الوطن العربي وتراثه، والحضارة الأوروبية الأمريكية، والحضارة الأوروبية السوفياتية، والحضارات العظيمة التي عرفها العالم في الماضي. «ومن هؤلاء جميعاً سنأخذ ما نحتاجه من مواد وأدوات وأحجار لازمة لإيجاد فلسفة هدفها بناء الوطن العربي». وهكذا تقودنا فلسفة النكبة إلى فلسفة البناء، وهذه بالتالي تفضي بنا إلى ضرورة إقامة بنيان حضاري متكامل.

أما وسائل هذا البناء فعديدة، على رأسها «ظهور نخبة تضع لنفسها عقيدة وتسير في الطليعة». وأما عناصر ذلك البناء، فيعددها المؤلف ويتحدّث عن كل منها بالتفصيل: فالقاعدة هي المواطن العربي، المواطن العربي الذي حقق الانقلاب العميق الصادق في نفسه وروحه أولاً. والجدار الأول هو الركن الاجتماعي، ويعني به التغيير

الاجتماعي الذي يقضي على تمزّق الوطن العربي وانقسامه إلى طوائف وشيع وطبقات وأسر ودويلات. والجدار الثاني هو الركن الاقتصادي، في أبعاده المختلفة، ذلك الركن الاقتصادي الذي هو «الدعامة المادية الكبرى لكيان الوطن واستقلاله ورفعته، وسعادة كل مواطن فيه». ويشمل هذا الركن الاقتصادي تطوير الحقل الزراعي والحقل الصناعي والحقل المالي والحقل التجاري والحقل النقلي. وقوام هذا الركن الاقتصادي وجوهره «التوزيع الشامل العادل» للثروة، وغايته «رفع المستوى المعيشي لكل مواطن». والجدار الثالث هو الركن العلمي، ويتمّ ببناء نظام تعليمي لا طبقية فيه ولا تمييز، «يقوم على العلم وحده وتكون غايته مصلحة الإنسانية كما هي ممثّلة في العالم كله وفي الجزء العربي منه». كما يتمّ أيضاً بنشر الثقافة العامة بين المواطنين عن طريق وسائل الثقافة المعروفة. على أن الهدف الأهمّ للبناء العلمي «تنشيط العقل وتوسيع أفقه وصبغ عملياته بالصبغة العلمية وطريقتها التجريبية»، والوصول إلى «القيم الإنسانية كالصدق والأمانة والعمل». والجدار الرابع هو الركن السياسي، وهيكله الوطن العربي بأكمله وإقامة دولة عربية موحدة أو «ولايات عربية متحدة مؤلفة من أربع ولايات: ولاية شمال إفريقيا من مراكش والجزائر وتونس وليبيا، وولاية وادي النيل من مصر والسودان، وولاية الهلال الخصيب من العراق والأردن وسورية ولبنان، وولاية الجزيرة بجميع أقطارها وسواحلها». ولهذا الكيان مجالسه وهيئاته التي يتحدّث عنها المؤلّف. وأخيراً هنالك السقف وهو الرسالة الإنسانية، وقوامه العمل على وحدة المجتمع البشري وعلى التعاون العالمي، واستشراف حضارة إنسانية ذات قيم فاضلة سامية.

وفي خاتمة كتابه يلخّص المؤلّف أمهات الأفكار التي أوردها، فيقول: «إن ثمة كارثة قد حاقت بنا منذ سنوات معدودات، وإن هذه

الكارثة لم تكن غير حلقة من حلقات النكبة التي طوّقت الوطن العربي وقيّدت كل شبر فيه قروناً طوالاً. ونحن موقنون أن هذه النكبة المتصلة عبر الآماد وفي جميع الأبعاد، ما كانت لتقع أو لتستمر لو لم يكن هنالك استعداد لتقبّلها وعوامل مهيئة لوجودها وبقائها في هذا الوطن أو بالأحرى في أهله». ويضيف: «ونحن إذ نعتبر أنفسنا مسؤولين عنها في كافة صورها، نرى ضرورياً البحث عن أسباب النكبة في نفوسنا، بالدراسة التاريخية المجرّدة عن الهوى والبحث العلمي الذي لا غاية له غير الحقيقة».

ويبيّن بعد ذلك أن الوعي الذي سيشعّ في عقولنا هو الذي يعرّفنا «أن هدفنا هو إقامة بناء حضاري إنساني في الوطن العربي، وأن وسيلتنا هي العلم الذي يتيح للإنسان كشف أسرار الطبيعة واستغلال عناصرها، وأن مهمتنا هي تثوير كل شيء: الأرض والفرد والمجتمع وسائر ما فيهم ومن حولهم».

من هذه الخلاصة السريعة لذلك السفر الضخم، نرى أنه في بحثه عن تجاوز النكبة، يحاول التأليف المتكامل بين أمرين:

أولهما تحليل البنية التاريخية الاجتماعية للحياة العربية، ومعرفة أصول الضعف والقوة في هذه البنية عن طريق التحليل الجريء الصادق لتاريخ العرب ولتراثهم عبر العصور. فلا بد عنده ـ كما رأينا ـ من البحث عن أصول النكبة في نفوسنا وفي تكويننا النفسي، ذلك التكوين الذي هو نتاج تراث ينبغي جلاؤه وفهمه ومعرفة علله وأدوائه.

وثانيهما بناء الحاضر ـ انطلاقاً من وعي الماضي ومن وعي أنفسنا ـ وإقامة هذا البناء على أُسس عصرية حديثة، تفيد من تجربة الشعوب المختلفة كما تفيد من تجربة الشعب العربي.

ولا شك أن هذا الاتجاه نحو تحليل «الذات» ومعرفة أصولها التاريخية اتجاه يكوّن خطوة جديدة في طريق معالجة النكبة. ومن

الصحيح أن نقول مع الكاتب إن بناء الحاضر يظل مجرد مطلب وأمل إذا نحن لم نغيِّر أولاً البنية النفسية والفكرية للشعب العربي، عن طريق وعيه التاريخي لذاته، وعن طريق ربطه بين وعيه لتجربته ووعيه للتجربة العالمية قديماً وحديثاً.

غير أن الكتاب تعوزه مع ذلك النظرة الشاملة المتكاملة التي لا بد منها لتحليل الماضي ولبناء الحاضر. وهو يكتفي في الجملة برصف مجموعة من الإصلاحات الواجبة في شتى الميادين، دون أن يسلّط عليها نظرة مبدئية موحدة مؤلِّفة.

٤ ـ «الفعالية الثورية في النكبة» للدكتور نديم البيطار[1]:

هذا الجهد التأليفي التركيبي في تحليل النكبة وفي رسم خطة الخروج منها، هو الذي يُنادي به ويتوقف عنده الدكتور نديم البيطار في كتابه القيِّم **الفعالية الثورية في النكبة**. وكتاب الدكتور البيطار هذا ظهر متأخراً عن معظم الكتب والدراسات التي تعرّضت للنكبة (ظهر عام ١٩٦٥) ومن هنا يحاول أن يتجاوزها.

فهو يتحدث عن عجز الفكر العربي أمام النكبة، ويرى أنها لم تستطع أن تُحدث هزّة كافيةً في الفكر العربي، ولم تؤدِ إلى ظهور «نتاج ذي طابع فلسفي اجتماعي ثوري في تعليلها وتفسيرها».

ولذلك، فهو يحاول أن يسد هذه الثغرة، فيرى أن من الواجب على الفكر العربي ـ أمام النكبة ـ أن يشغل ذاته أولاً وبالدرجة الأولى بأربعة أمور:

١) أن يكشف عن الطبيعة الثورية التي تنطوي عليها النكبة وعن مضمونها الانقلابي؛

(١) بيروت، دار الاتحاد، ١٩٦٥.

٢) أن يكشف عن معناها بالنسبة إلى الوجود العربي التقليدي ككل؛

٣) أن يستدلّ على الاتجاهات والقوانين الثورية التي تتفرع منها كي تفرض ذاتها على الحركة العربية الانقلابية ككل؛

٤) أن يدعو إلى العمل بوحي تلك الحقائق، من معنى ومن طبيعة ومن قوانين.

ويحاول أن يتصدّى لهذه المهمة في كتابه. ويصل بعد التحليل إلى مجموعة من النتائج أهمّها:

١) النكبات والكوارث الكبرى تخضع لمنطق عام، وتؤدي إلى نتائج متقاربة متشابهة. والتفكير الصحيح هو الذي يكشف عن الاتجاهات العامة التي تثوي وراء الأحداث الجزئية؛

٢) كل نكبة تنطوي على إمكانات ثورية تلقائية تفرضها طبيعة النكبة ذاتها. وللنكبة مضمون ثوري، ودورها الخلاّق في التاريخ دور غدا معروفاً؛

٣) وأهمّ نتائج النكبات أنها تؤدّي إلى انحلال المواقف والنُظُم التقليدية وإلى توليد حركة ثورية تتجاوزها. تشهد على ذلك الدراسات الاجتماعية والنفسية والتاريخية وسواها. وكلها تبيّن أن الأزمات القومية العامة تؤدّي إلى تحوّلات جذرية شاملة في بنية المجتمعات، كما تؤدّي الأزمات النفسية الفردية إلى تحولات جذرية في تركيب الفرد النفسي والفكري. ويشهد على تلك الحقيقة أيضاً حدوث الثورات العربية المختلفة إثر نكبة فلسطين ونتيجة لها. فالمزاج العام الذي يتولّد عن الحرب هو مزاج ملائم للثورة والعنف، والحرب أكبر عامل في توليد الثورات. ومن هنا يمكن القول «إن نكبة فلسطين ستكون، في المدى البعيد، قوة ثورية كبيرة في تحويل العربي إلى إنسان جديد» (**الفعالية الثورية. . .**، ص ٦١)؛

٤) وبهذا المعنى «تخلق النكبة في تحققها ذاته المتناقضات والأسباب التي تنقضها وتتجاوزها». فهنالك في نظر الكاتب «ضرب من ديالكتيك النكبة الثوري، يجعل النكبة قادرة على توليد نقيضها، لأنها محمَّلة ببذور القضاء عليها. ومما يؤكد ذلك مثلاً أن المغلوب يقلّد العدو الغالب عادةً، وأن كل حركة ثورية تتأثر بعدوها وتقلّد الشيطان الذي تحاربه» (نفسه، ص ٧٢). ومن هنا لا بد للمجتمع العربي المغلوب أن يمتلك أسباب التفوق التي يملكها العدو؛

٥) نكبة فلسطين ـ كأي نكبة ـ أعلنت عن عمق أزمة الوجود العربي وشمولها، فلزم عن ذلك أن تكون محاولات تجاوزها عميقة وشاملة وجامعة أيضاً. وأي محاولة تنطلق من الوجود العربي التقليدي أو من تصحيح إصلاحي لذلك الوجود، محاولة عقيمة. ولا بد بالتالي من «تجديد عقائدي يؤدّي إلى تجديد نفسي روحي». وذلك التجديد يتم «عند قيام فلسفة حياة جديدة» (نفسه، ص ١٤٩)، أي عن طريق أيديولوجية جديدة تقدّم حلولاً أساسية جذرية للوجود العربي.

هذه الخلاصة السريعة لكتاب الدكتور نديم البيطار تكشف عن الخطوة الجديدة التي خطاها في دراسة النكبة. فهو يحاول دراستها دراسة اجتماعية، ويجرّب أن يكشف عن القوانين التي يفرضها حدوث النكبة، والتي لا بد أن تؤدّي إلى تجاوزها. وينتهي في هذا المجال ـ كما رأينا ـ إلى ضرب من الحتمية والجبرية التاريخية. فيُقرّر أن الانقلاب على العوامل التي أدت إلى قيام النكبة واقع لا محالة، وأنه جزء من منطقها ومن طبيعة وجودها. غير أنه يشترط لحدوث ذلك الانقلاب أن يقوم وعي لتلك العوامل ولمعنى النكبة ولمدلولها الثوري. وهذه المهمة هي عنده مهمّة الفكر بعد النكبة. ولا شك أنه ينجح في توضيح الطبيعة الثورية التي تحملها النكبة، ويبيِّن ما تكشف عنه من عجز الكيان العربي التقليدي وما تومىء إليه من ضرورة تجاوزه

تجاوزاً جذرياً شاملاً. غير أنه يقف عند هذا الحدّ، ولا يوضح مقومات تلك النظرة الشاملة الجديدة التي يدعو إليها.

خاتمة

وبعد، هذه أمثلة قليلة على الفكر الذي ظهر بعد النكبة محاولاً تحليلها وأخذ العِبَرِ والدروس منها. ولا شك أنه، إلى جانب تلك الأمثلة المعدودة، ثمة نماذج أخرى من الفكر الذي وُلِدَ نتيجة للنكبة، لا يتسع المجال لإحصائها والحديث عنها بالتفصيل. غير أنها، في الجملة، لا تخرج عن إطار الدراسات التي وقفنا عندها.

أما الدراسات الفكرية الأخرى التي تجاوزت إطار الدراسات التي أشرنا إليها، فتنتسب إلى الاتجاهات السياسية والحزبية التي نشأت بعد النكبة. والحديث عنها يعيدنا في الواقع إلى الحديث الذي سبق أن سقناه عن الأوضاع السياسية بعد النكبة.

والطابع العام لتلك الدراسات السياسية والحزبية أن كلاً منها يؤكّد الاتجاه السياسي أو الحزبي الذي ينتسب إليه، ويعتبر المنطلق والحلّ متصلين ونابعين من النظرة السياسية التي يأخذ بها.

على أن الفكر العربي ـ سواء أكان مستقلاً أم منتمياً إلى اتجاهات سياسية معيّنة ـ اضطر إلى تغيير الكثير من منطلقاته حول النكبة بعد وقوع كارثة الخامس من حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧. وهكذا ولد فكر جديد، قام بشيء من المراجعة للفكر الذي تلا النكبة، واتصف بحملة قاسية على أساليب التفكير والعمل التي أعقبتها. وأهمّ ما في هذا الفكر الجديد أنه انصبّ على نقد الفكر الانقلابي والثوري نفسه الذي ظهر بعد نكبة عام ١٩٤٨، ولم يقتصر على نقد الفكر التقليدي الذي أدّى إلى تلك النكبة في نظر المفكّرين الذين كتبوا بعدها، كما رأينا.

وهكذا بدأ يتكوّن بعد الخامس من حزيران/ يونيو فكر تركيبي

جديد، يُحاول أن يستخرج من فشل الفكر التقليدي الذي أدّى إلى نكبة عام ١٩٤٨ ومن تخبّط محاولات التفكير الجديد التي أفضت إلى كارثة الخامس من حزيران/ يونيو، مركّباً جديداً يتجاوزهما. وليس المجال هنا مجال الحديث عن هذا الفكر الجديد. ولعلّ الحدث الهام الذي تمّ بعد حرب السادس من تشرين الأول/اوكتوبر عام ١٩٧٣، قادر على توليد نظرة فكرية أصدق وأعمق.

وأياً كان الأمر، فقد لعبت نكبة عام ١٩٤٨ دورها الكبير في الحياة الفكرية، كما لعبت هذه الحياة الفكرية دورها في استخلاص دروس تلك النكبة وفي تمهيد الطريق لتجاوزها. وانطلق منذ تلك النكبة جهدٌ فكري موصول، كان من الطبيعي ألا يكون مكتملاً منذ البداية، غير أنه أخذ بالنماء والاغتناء شيئاً بعد شيء، لا سيما بعد الأحداث التي تلت تلك النكبة. ولا يزال هذا الجهد الفكري يدأب لتوليد فكر متجدّد، يأخذ الدروس من الأحداث المختلفة، ويساير حركة النضال العربي في مواجهة مأساة فلسطين، وهي حركة متعاظمة نامية، تخطو دوماً خطوات إلى أمام ويخطو معها الفكر خطوات جديدة. ولا شك أن نضال الفكر العربي في مواجهة المأساة، نضال موصول مستمر، لا بد أن يتجاوز ذاته باستمرار، ولا يمكن أن يقف عند حد.

أهمّ المراجع

أولاً ـ حول التقييم العام للحرب:

١ ـ شفيق الرشيدات، **فلسطين، تاريخاً وعبرة ومصيراً**، بيروت، دار النشر المتحدة للتأليف والترجمة، ١٩٦١.

٢ ـ د. عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٠.

٣ ـ د. يوسف هيكل، **فلسطين قبل وبعد**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧١.

٤ ـ محمد عزة دروزة، **حول الحركة العربية الحديثة**، صيدا ـ بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٦٠.

٥ ـ أنيا فرنكوس، **الفلسطينيون**، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٦٩.

٦ ـ Sami Hadawi, *Bitter Harvest*, New York, The New World Press, 1967.

٧ ـ J. Kimche, *The Seven Fallen Pillars*, New York, F.A. Praeger, 1953.

٨ ـ Menacheam Begin, *The Revolt*, New York, Henry Schuman, 1951.

٩ ـ Edgar O'Ballance, *The Arab-Israeli War 1948*.

١٠ ـ Ben Gurion, *Rebirth and Destiny of Israel*, New York, The Philosophical Library, 1954.

١١ ـ Ben Gourion, *Israel, Années de Lutte*, Paris, Flammarion, 1964.

١٢ ـ E. H. Hutchison, *Violent Truce*, New York, The Devin-Adair Company, 1956.

ثانياً ـ حول أثر الحرب على الشعب الفلسطيني:

١ ـ شفيق الرشيدات، **فلسطين، تاريخاً وعبرة ومصيراً**، بيروت، دار النشر المتحدة للتأليف والترجمة، ١٩٦١.

٢ ـ **تهويد فلسطين**، إعداد الدكتور إبراهيم أبو لغد، ترجمة الدكتور أسعد رزوق، بيروت، مركز الأبحاث، ١٩٧٢.

٣ ـ Sami Hadawi, *Bitter Harvest*, The New World Press, 1967.

٤ ـ «Le Conflit Israélo-Arabe», *Les Temps Modernes*, No. 253, Bis. 1967.

ثالثاً ـ حول أثر فلسطين على الأوضاع السياسية العربية:

١ ـ محمد حرب فرزات، **الحياة الحزبية في سوريا (١٩٠٨ ـ ١٩٥٥)**، دمشق، منشورات دار الروّاد، ١٩٥٥.

٢ ـ **مجلة العروة**، عدد خاص بالأحزاب السياسية في البلدان العربية، بيروت، إصدار جمعية العروة الوثقى في الجامعة الأمريكية، ١٩٥٠.

٣ ـ د. عبد الوهاب الكيالي، **النضال الفلسطيني، دروس وعبر**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧١.

٤ ـ جمال عبد الناصر، **فلسفة الثورة**.

٥ ـ **فكر جمال عبد الناصر في الميثاق**، بنغازي، ١٩٧٢.

٦ ـ **حقيقة الميثاق**، بنغازي، ١٩٧٢.

٧ ـ مؤسسة الأبحاث العلمية العربية العليا، **الموسوعة الناصرية**، المجلد

الأول، بيروت، دار الحكيم، ١٩٧٣.
٨ ـ **البعث وقضية فلسطين (١٩٤٤ ـ ١٩٤٨)**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٣.
٩ ـ **نضال البعث**، الجزء الثاني، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٣.
١٠ ـ ناجي علوش، **المقاومة العربية في فلسطين (١٩١٧ ـ ١٩٤٨)**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٠.

رابعاً ـ أثر الحرب في الأدب والفكر العربي:

١ ـ د. صالح الأشتر، **في شعر النكبة**، دمشق، نشر جامعة دمشق، ١٩٦٠.
٢ ـ غسان كنفاني، **أدب المقاومة في فلسطين المحتلة (١٩٤٨ ـ ١٩٦٦)**، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٦ .
٣ ـ حليم بركات، **عودة الطائر إلى البحر**، بيروت، دار النهار، ١٩٦٩.
٤ ـ جورج حنا، **لاجئة**، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٢.
٥ ـ عاطف أحمد حلوة، **ناسف الجسور**، بيروت، دار الكاتب العربي، ١٩٦٩.
٦ ـ غسان كنفاني، **رجال في الشمس**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٣.
٧ ـ غسان كنفاني، **ما تبقى لكم**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٦.
٨ ـ عيسى الناعوري، **بيت وراء الحدود**، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٥٩.
٩ ـ عيسى الناعوري، **جراح جديدة**، بيروت، منشورات مجلة السياحة، ١٩٦٧.
١٠ ـ يوسف سالم، **دقت الساعة يا فلسطين**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢.
١١ ـ إيليانا صنبر، **بنفسجة للعائد**، بيروت، دار مجلة شعر، ١٩٦٥.

١٢ ـ يوسف السباعي، طريق العودة، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٨.
١٣ ـ ليلى عسيران، عصافير الفجر، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٨.
١٤ ـ خليل هنداوي، «تسع بنادق فقط»، مجلة الآداب، كانون الثاني (يناير) ١٩٥٤.
١٥ ـ خليل هنداوي، «الفدائي الصغير حسن»، مجلة الآداب، كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧.
١٦ ـ علي أحمد باكثير، «من خلف المعركة»، مجلة المجلة، نيسان (إبريل) ١٩٥٩.
١٧ ـ سهيل إدريس، «زهرة من دم»، مجلة الآداب، آذار (مارس) ١٩٦٩.
١٨ ـ خليل زقطان، صوت الجياع، القدس، ١٩٥٣.
١٩ ـ عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، أغنيات بلادي، دمشق، ١٩٥٩.
٢٠ ـ عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، المشرّد، دمشق، ١٩٥٣.
٢١ ـ عبد الوهاب البياتي، أباريق مهشّمة، بيروت، ١٩٥٥.
٢٢ ـ علي هاشم رشيد، أغاني العودة، مصر، ١٩٦٠.
٢٣ ـ هارون هاشم رشيد، أرض الثورات، بيروت، ١٩٥٩.
٢٤ ـ هارون هاشم رشيد، عودة الغرباء، بيروت، ١٩٥٦.
٢٥ ـ هارون هاشم رشيد، مع الغرباء، القاهرة، ١٩٥٤.
٢٦ ـ هارون هاشم رشيد، غزة في خط النار، بيروت، ١٩٥٧.
٢٧ ـ يوسف الخطيب، العيون الظماء للنور، دمشق، ١٩٥٩.
٢٨ ـ يوسف الخطيب، عائدون، بيروت، ١٩٥٩.
٢٩ ـ كمال ناصر، جراح تغنّي، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٠.
٣٠ ـ سلمى الخضراء الجيوسي، العودة من النبع الحالم، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٠.
٣١ ـ موسى العلمي، عبرة من فلسطين، بيروت، دار الكشاف، الطبعة

الثالثة، ١٩٤٩.

٣٢ ـ د. قسطنطين زريق، **معنى النكبة**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٤٨.

٣٣ ـ د. قسطنطين زريق، **معنى النكبة مجدداً**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٧.

٣٤ ـ د. وليد قمحاوي. **النكبة والبناء**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٦.

٣٥ ـ د. نديم البيطار: **الفعالية الثورية في النكبة**، بيروت، دار الاتحاد، ١٩٦٥.

٣٦ ـ H. Douglas Rowland: *The Arab-Israeli Conflict as Represented in Arabic Fictional Literature*, Michigan, University Microfilm, Ann Arbor, 1971.

محتوى الكتاب

من كتب المؤلف

١ ـ دروب القومية العربية، بيروت، دار الآداب، ١٩٥٨.
٢ ـ القومية والإنسانية، بيروت، دار الآداب، ١٩٥٩.
٣ ـ التربية القومية، بيروت، دار الآداب، ١٩٥٨.
٤ ـ الجيل العربي الجديد، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٠.
٥ ـ الاشتراكية والديمقراطية، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٢.
٦ ـ الوطن العربي والثورة، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٤.
٧ ـ التخطيط الاشتراكي، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦١.
٨ ـ في سبيل ثقافة عربية ذاتية، بيروت، دار الآداب، ١٩٨٢.
٩ ـ القومية العربية والنظام العالمي الجديد، بيروت، دار الآداب، ١٩٨٤.
١٠ ـ إسرائيل وهويتها الممزقة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦.
١١ ـ التخطيط التربوي، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة التاسعة، ١٩٩٧.
١٢ ـ التربية التجريبية والبحث التربوي، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤.
١٣ ـ التربية عبر التاريخ، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة التاسعة، ١٩٩٦.
١٤ ـ التربية العامة، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥.
١٥ ـ الثورة التكنولوجية في التربية العربية، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٩١.
١٦ ـ الجمود والتجديد في التربية المدرسية، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.
١٧ ـ التربية في البلاد العربية، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٩٤.
١٨ ـ التربية والعمل العربي المشترك، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.
١٩ ـ التربية وتنمية الإنسان في الوطن العربي، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.
٢٠ ـ نحو فلسفة تربوية عربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ١٩٩١.
٢١ ـ بحث مقارن عن الاتجاهات السائدة في الواقع التربوي في البلاد العربية، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٣.
٢٢ ـ مراجعة استراتيجية تطوير التربية العربية، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٥.
٢٣ ـ الاستراتيجية العربية للتربية في المرحلة السابقة على التعليم الابتدائي (مرحلة رياض الأطفال).. تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٦.
٢٤ ـ دور التربية والثقافة في بناء حضارة إنسانية جديدة، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٩٨.
٢٥ ـ صراع اليهودية مع القومية الصهيونية، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٩٩.

١٢٩١ / ٠٠ / ١٠٠٠
مطبعة دار الكتب ـ شارع عدنان الحكيم ـ مقابل الـ BHV ـ بناية البارادايز ـ ٨٥٣٧٥٣/ ٠١
جميع أنواع الطباعة والتصميم (شعارنا النوعية والوقت)

نكبة فلسطين عام ١٩٤٨

التحدي العربي للمحنة بين الأمس واليوم

❑ إن ثوابت الحركة الصهيونية التي أدّت إلى خلق الكيان الإسرائيلي هي هي ثوابتها كما نشهدها اليوم؛ وهي ثوابتها التي تعمل لها دوماً وأبداً، وهذه الثوابت الصهيونية ـ كما يوردها ويؤكدها هذا الكتاب ـ هي : إدّعاء الحقّ التاريخي الإلهي في أرض فلسطين ـ الاعتماد على عون الدول الغربية، ولا سيما الولايات المتحدة ـ اتخاذ العنف مطيّة لتحقيق أهداف الصهيونية ـ تفتيت الوجود العربي وتمزيقه...

❑ وهكذا، فالكتاب الذي بين أيدينا ذكرى وتذكير للأجيال الجديدة التي لم تعش أيام النكبة، والتي قلّما تدرك الارتباط الوثيق بين ما جرى فيها وما جرى قبلها، وبين ما جرى ويجري بعدها. ولا شك ان إيقاظ وعي الجيل الناشىء، فضلاً عن تجديد وعي الجيل الذي عرف النكبة، حول مراحل هذه النكبة وخلفياتها وأحداثها الخطيرة، وما خلّفته من مآس، واجب قومي يتصدّر سواه في هذه المرحلة القلقة من حياة أمتنا العربية التي يسودها البُحران والضياع بدلاً من أن تسودها العزيمة وإرادة التحرير، ولا سيما بعد مرور خمسين عاماً على وقوع تلك النكبة.

❑ كذلك، يقدم الكتاب شهادة على ما كان لنكبة فلسطين من آثار هامّة على الأوضاع السياسية العربية وعلى الحياة الفكرية والأدبية. [illegible] يجعل منه مرجعاً شاملاً ومركّزاً عن قضية العرب الأولى، جديراً بالاقتناء والدرس؛ كما يجعل منه بمثابة مرشد لكل من يعنيهم وضع معركة الصراع العربي ـ الإسرائيلي على طريقها الصحيح، لا سيما وأن واضعه [illegible] عربي رائد، عاصر النكبة وعاشها بكل عقله وجوارحه.

الناشر

دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت